231

HARLEQUIN

روايات أحلام

بقايا ليل

كيت والكر

www.elromancia.com
مرمورية

بقايا ليل

ما كان حلماً رائعاً ليلة أمس ، انتهى كابوساً عند الصباح ... الرجل الذي ألبس ليلي خاتم الزواج بالأمس ، يلقي عليها الآن كلمات الوداع ...

- لكن لا يمكنك أن ترحل ..

- يمكنني أن أفعل ما أريد .. حاولي فقط أن تمنعيني !

لم يكن هذا هو الرجل الذي أحبته ومنحته جسدها وقلبها منذ يوم واحد فقط ، خيّل إليها أن رجلاً غريباً أمسك بجسد رونان وانتزع منه روحه ، تاركاً من ذلك الرجل الذي أحبت ، الهيكل فحسب.

أمس ، حسبت أنها ملكت العالم ، ووجدت الحب الحقيقي الذي تطلعت إليه طوال حياتها ، ولكن كل هذا مات عند الصباح ...

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-16-066-7

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.
كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Stephanie

First published in Great Britain 1994

Harlequin Mills & Boon Limited

© Debbie Macomber 1992

Translation © Dar El-Farasha- 2001

ISBN 9953 - 15 - 059 - 1

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: ٨٢٥٤/١١ هاتف/فاكس: ٤٥٠٩٥٠ - ١ - ٩٦١ - بيروت - لبنان
Email: dfarasha@cyberia.net.lb

كيت والكر

ولدت «كيت والكر» في «نوتنغها مشير»، لكنها كانت دائماً تشعر أن جذورها متأصلة في «يوركشير»، لأنها ترعرعت هناك. التقت زوجها في الكلية وعملت أولاً كمشرفة على مكتبة لكتب الأطفال. بعد ولادة ابنها الأول عادت إلى الكتابة التي أحبتها في طفولتها. عندما لا تعمل، تكرس بعضاً من وقتها لعائلتها وقططها الثلاث وولعها بهواية التخريم وجمع التحف ومشاهدة الأفلام والمسرحيات... والقراءة طبعاً.

١ ـ كلام اللّيل...

نظر «رونان غيرين» إلى وجه المرأة النائمة في السرير، فأوشك أن يعدل عن قراره. فقد بدت مسالمة بريئة، ورائعة الجمال.. وكان من الصعب عليه أن ينسى ما جرى بينهما.. والمشاعر المحمومة المتوهجة التي تفجّرت.. ومع ذلك لا يشعر بوخزة ندم لما يعتزم القيام به.

لكنه عاد فتذكر «روزالي»، تلك التي تماثلها جمالاً وبراءة، فقسى قلبه وثبّت عزمه ثم مدّ يده يلمس كتفها برفق، قائلاً برقة: «ليلي...».

لم تجب في البداية.. فقد كانت مستغرقة في نوم عميق بعد ليلة حافلة لم يذوقا خلالها طعم النوم. ولأنه لم يشأ أن يعطي نفسه الفرصة ليعيد النظر في الأمور أو الاستسلام لضعفه أمام منظر البراءة هذا، هزها بخفة، ونظر إليها وهي تتمتم بصوت خافت وتتقلب في مرقدها وعيناها مغمضتان.

ـ صباح الخير، يا زوجة.

(صباح الخير يا زوجة) اخترقت هذه الكلمات سحب النوم المتراكمة حول ذهن ليلى لتصل إلى أذنيها غامضة مبهمة مما جعلها تقطب جبينها ناعسة مشوّشة. زوجة؟

وتحركت بتثاقل في الفراش المريح، وفتحت عينيها الذهبيتين الداكنتين على اتساعهما لتلتقيا بنظرات الرجل الجالس على حافة السرير وأصابعه القوية ما زالت على ذراعها.

ـ رونان؟

طبعاً! وكيف يمكنها أن تنسى ولو لحظة؟ كيف يمحو النوم حقيقة أنّها

منحت هذا الرجل قلبها كلياً؟ هذا الرجل الذي ألبسها أمس فقط خاتم الزواج، مقسماً على أن يحبها ويحترمها بقية حياته؟

تمطت مبتهجة، ثم استدارت تواجهه: «صباح الخير، يا زوجي».

كانت غمزة جفنيها وابتسامتها المغرية الناعسة موجهتين مباشرة إلى عينيه الزرقاوين، وكانت خصلات شعرها الأشقر الطويل قد انتشرت بشكل مثير حول وجهها البيضاوي الشكل على الوسادة الناصعة البياض.

لكنها دهشت إذ لم تجد الصدى الذي كانت تتوقعه لابتسامتها وغمزتها الداعية. وإنما، بدا لها رونان فاتراً بشكل غريب مقلق. فقد ظهرت البرودة على قسمات وجهه الذي يعلوه شعر ناعم بني داكن.. برودة لا تمت بصلة إلى ذلك العاشق المتلهف المحموم المشاعر الذي عرفته.

- زوجي.

عادت تتمتم بهذه الكلمة، وهي تلفظ كل حرف من حروفها بلهفة..

عندما استرسلت البارحة في النوم، كانت واثقة أنها ستستيقظ لتجد نفسها قربه.

لذا تملكها الارتباك والقلق وهي تراه الآن جالساً بجانبها، مرتدياً ملابسه، وقد بدت عليه البرودة واللامبالاة. وسألته وهي تتذكر الرحلة التي سيقومان بها هذا اليوم: «كم الساعة الآن».

- حوالى التاسعة.

- ما زال الوقت باكراً، فماذا تفعل؟

قالت ذلك وهي تنظر إلى ملابسه باستنكار. فقد بدت هذه غير ملائمة للرحلة الطويلة التي سيقومان بها إلى جزيرة استوائية ليقضيا شهر العسل فيها... والبذلة الرمادية الأنيقة الفاتحة اللون، والقميص الناصع البياض، وربطة العنق المتحفظة، زادت من شعورها بالارتباك وانتابها إحساس بالعزلة والبعد عنه، فقالت باحتجاج: «لن تقلع طائرتنا قبل الثالثة..

أمامنا متسع من الوقت».

ومدّت يدها تلامس يده القوية، الملقاة على غطاء السرير الأبيض، وهي تتمتم: «عد إلى السرير».

لكن جوابه الوحيد كان هزة نفي بالغة العناد من رأسه الملمَّع الشعر. استقرت نظراته الكئيبة على «محبس» الزواج الذهبي المتألق في يدها.

فقالت له بصوت حاد غير مصدقة: «لا!».

أهذا هو الرجل نفسه الذي عرفته؟ أهو رونان نفسه الذي عاملها بغاية الرقة والحب.

وقالت بصوت خافت محاولة إغوائه: «ما الذي حدث، يا حبيبي؟ أتراك سئمت مني؟».

وكان لسؤالها هذا ردة فعل مختلفة تماماً عما كانت تتوقعه. فقد رفع رونان رأسه بحركة مفاجئة لتلتقي عيناه بعينيها، وتشتبك برودة نظراته بدفء العنبر في نظرات ليلي. وإذا بشيء في أعماق تينك العينين، شيء عكّر صفاءهما وجعلها ترتجف توجساً.

- سئمت منك؟ هذا محال.

وليثبت كلامه هذا، أرفقه بنظرة ساخرة اهتزت لها. ولكن ما إن بدأت ليلي بالعودة إلى تلك الأحاسيس الدافئة، حتى تنبهت إلى ما يحفّ تلك النظرة من برودة جعلت عينيه أشبه بكتلتين من الثلج. قال لها: «وجودك وحده يشعل النار في كياني، أيتها السيدة، وأنت تعلمين ذلك. نظرة واحدة إليك تجعلني أرغب فيك إلى درجة أنني أشعر بأنني سأموت إن لم أحصل عليك. لكن تلك كفارة عليّ أن أتحمّلها».

قال ذلك بصلابة مزعجة.

- كفارة؟

تحول إحساسها بعدم الارتياح إلى موج كاسح من الاضطراب والقلق، فتوترت أعصابها بشكل بالغ وهي تقول: «لم أفهم!».

لم تستطع إخفاء رجفة في صوتها وهي تندفع جالسة بذعر: «ما الأمر، يا رونان؟».

ـ أريدك، يا ليلي.

قال ذلك متجاهلاً سؤالها. كانت كل كلمة من كلماته باردة إلى حد أن ليلي أجفلت منها وكأنها قطع ثلج تتساقط على عنقها وكتفيها. ثم تابع قائلاً: «ولكنني لن ألمسك بعدالآن أبداً.. على الإطلاق. انتظرت فقط أن تستيقظي لأقول لك الوداع».

ـ الـ.. الوداع؟

هذا مستحيل. لا بد أنها لم تسمع جيداً، أو أنها نكتة مثيرة للغثيان.. نكتة لم تعجبها مطلقاً. ولكنها ما كانت لتصدق أن يكون رونان بمثل هذه القسوة.

ـ هذا ليس مضحكاً، يا رونان؟

ـ مضحكاً؟

قال ذلك بلهجة لم تكن بحاجة لمزيد من الإيضاح.. إلا أنه أراد أن يخبرها بالأمر بإسهاب ودقة فلا يوفّر عليها شيئاً. فقد أرادها أن تعلم بالضبط ما يجري، وأن تفهم معنى الألم الحقيقي.

ـ هذه ليست نكتة يا عزيزتي، صدقيني. لم أكن يوماً جاداً كما أنا في هذه اللحظة، لقد انتهى زواجنا. وسأرحل إلى غير عودة.

ونهض واقفاً بخفة فصدمت وهي تقارن حركته السهلة تلك بالانفعال العنيف الذي يعتمل في رأسها. وتابع كلامه قائلاً: «وسأدعك تقررين موعد تنفيذ إجراءات الطلاق».

ـ ولكن..

ـ والآن، إذا سمحت..

وكان في تصرفه المهذب هذا ما يثبت تصميمه على عدم الرأفة بحالها على الإطلاق.

ـ أمامي رحلة طويلة بالسيارة.

وعندما كان يجتاز الغرفة لم تستطع ليلي سوى التحديق إليه بذهول واضطراب. وعلى الرغم من أن عينيها الذهبيتين تسمرتا على ظهره، كانت أفكارها مستغرقة في أحداث اليوم السابق.. يوم عرسهما.. وحاولت أن تفهم السبب الذي حوّل سعادتها المتألقة، إلى مثل هذه المشاعر المرعبة الآن.

كيف أمكن لأعظم أحلامها الذي حسبته قد تحقق أن ينقلب، بهذه السرعة، إلى كابوس؟ لقد انهار ذلك الإنجاز الآن حطاماً عند قدميها.

ما الذي جعلها لا تشتبه بشيء؟ من المؤكد أنه كان ثمة دليل ما.. فما إن رفع القناع عن وجه العريس السعيد الذي يتطلع إلى زواجه بنفس الإثارة واللذة اللتين تملآن قلبها، حتى ظهرت مشاعره الحقيقية. ولو كانت المشاعر التي ادّعى أنه يكنها لها صحيحة، لما تصرف بهذا الشكل.

إلا أنه لم يبد عليه قط التصنع، ولم يساورها الشك للحظة واحدة في صدق مشاعره. فمتى تبددت يا ترى؟

لا.. هذا مستحيل! لا بد أنها تحلم! ولا بد أنها الآن في كابوس تتلهف للاستيقاظ منه.

وراحت تقرص يدها وذراعها، داعية الله أن يساعدها على الاستيقاظ من الكابوس.. ولكن شيئاً لم يحدث. فهي مستيقظة تماماً، وما يجري حقيقة.

أمس حسبت أنها ملكت العالم، ووجدت الحب الحقيقي الذي تطلعت إليه طوال حياتها.

كان يوم أمس رائعاً، ولم يثر شيء استياءها سوى شعر رونان..

* * *

ـ حسناً، هل أنت مستعدة للقيام بأطول مسيرة في حياتك؟

قال «جورج هاليداي» هذا لليلي ضاحكاً، ويده تضبط ربطة عنقه المزخرفة، فوق القماش الحريري.. كان وجهه المغضن قد لوحته شمس شهر نيسان غير المتوقعة.

ـ أطول مسيرة، يا عمي جورج؟

وابتسمت ليلي وهي تنظر إلى الرجل الذي لم يكن عمها الفعلي، ولكنه اكتسب هذا اللقب لطول عهد صداقتهما حين بدأت عملها كبائعة زهور. كان جورج يبيع الزهور على منصة مجاورة لمنصتها. وقد ساعدها كثيراً عندما انتقلت للعمل في حانوت صغير مستأجر، فبقي أقرب الأصدقاء لها وأشدهم إخلاصاً لسنوات. ومع اقتراب موعد زفافها، لجأت إليه إذ لم تكن تعرف مكان أخيها المفقود وكانت بحاجة إلى بديل له يرافقها إلى المذبح.

- يقال إنها أشبه بالمسيرة نحو المشنقة.

- لعل التقاليد أعطتها هذه الصورة، يا عزيزتي. ولكن رأيي فيها مختلف. فتلك المسيرة بالذات هي نحو هدف معروف مسبقاً وسريع الزوال. أمّا هذه، فمختلفة تماماً إذ يلزمك وقت طويل للتفكير. ومع كل خطوة تخطينهاتتساءلين عما إذا كنت قداتخذت القرار الصائب. يحبني.. لا يحبني..

وكان يتقدم نحو الأمام بخطوات بطيئة وقور مع كل جملة يقولها.

- أوّاه، يا عم جورج! لست مضطرة إلى التفكير، فأنا أحب رونان أكثر من نفسي، وهو يبادلني الشعور نفسه.

- حسناً، ما دمت واثقة من ذلك.. لكن أرى أنك تسرعت قليلاً.

وأنبأها عبوسه بما يجول في رأسه، فأسرعت تبدّد قلقه.

- لا، ما تفكر فيه غير صحيح. فرونان يعلم أنني أفضل الانتظار إلى ما بعد الزواج..

- إن كان الأمر كذلك، فزوجك نادر من نوعه. أظن أن هذا يفسر سرعته في عقد الزواج. فلو كنت أصغر بثلاثين سنة، ولي خطيبة بمثل جمالك، لأسرعت في عقد الزواج، إذ كل يوم أقضيه بعيداً عنها قد يبدو لي أشبه بالعذاب.

- عمي جورج!

وتوهج وجهها احمراراً من أسفل عنقها الرشيق إلى منبت شعرها الذي كان يعلوه إكليل بلوري. ورفعت باقة الورد الأبيض في يدها محاولة إخفاء

احمرارها.

- لا تخجلي مني، أيتها الشابة! فأنت في السادسة والعشرين وتدركين ما أعنيه. أتمنى أن يعي رونان أنه حظي بكنز ثمين.

- لا تقلق من هذه الناحية.

طمأنته ليلي وقد أخذت بعض الذكريات تبعث الاحمرار إلى وجهها مرة أخرى.

قد يكون رونان وافق على رغبتها في الانتظار إلى ليلة عرسهما، لكن هذا لا يعني أنه أذعن بسهولة، أو انتظر صابراً مسيطراً على مشاعره.

أعادت موسيقى «مسيرة الزفاف» التقليدية المألوفة انتباهها إلى الواقع.. أخذت تسوّي ثوب زفافها العاجي الأنيق، بأصابع مرتجفة، ثم رفعت رأسها عالياً وهي تلتفت إلى مرافقها بابتسامة واثقة: «فلندخل».

- ألن تعيدي النظر في الموضوع؟

- لا، أبداً. كلامك صحيح يا عمي جورج. رونان فريد من نوعه، ولهذا السبب بالضبط سأتزوجه.

كانت الكنيسة من الداخل أجمل مما توقعت، إذ وضعت الورود العاجية اللون على عتبات النوافذ الملوّنة الزجاج، والزنابق البرية عند طرف المقاعد. أما على المذبح، فكان هناك وردتان طويلتان شبيهتان بالشموع التقليدية التي توضع عادة في الكنيسة.

إلا أن الشموع الحقيقية غابت عن المبنى القديم هذا، بعد أن أفصحت ليلي عن رغبتها هذه للكاهن الذي تفهم شعورها تماماً.

وفي اللحظة التالية، اتجهت نظرات ليلي إلى الرجل الطويل الواقف أمام المذبح، وقد بدا ساحراً في معطف الصباح الرسمي البالغ الأناقة فنسيت على الفور كل شيء آخر.. إنه رونان، خطيبها الذي سرعان ما سيصبح زوجها بعد قليل.

أخذ قلبها يخفق بعنف وعيناها العنبريتان تلتهمان جسمه القوي الفارع وكتفيه العريضتين. كانت قدماه راسختين على الأرض الحجرية، وساقاه

قويتين ثابتتين، ولا أثر فيهما للرجفة العصبية التي اعترت ساقيها فجأة. وجعلت الشمس المنسابة من النافذة على رأسه مباشرة، خصلات شعره اللامعة النحاسية تتألق في العتمة الهادئة.

في تلك اللحظة لاحظت التغيير في مظهره!

شعره! لقد قص رونان شعره الرائع الجمال الذي كان بالأمس كثيفاً لامعاً، ذا تموّجات طبيعية، فأصبح الآن قصيراً يكشف عن رقبته السمراء.

اضطرت ليلي إلى عض شفتها السفلى بشدة لتكبت خيبة أملها. فقد كانت تعشق لفّ خصلات ذلك الشعر الحريري الأسود على إصبعها، بدا لها أكبر سناً وأكثر صلابة في شعره القصير الذي أبرز أيضاً ناحية القوة في شخصيته فتلك القوة هي التي منحته لقب رجل أعمال لا يرحم والتي نادراً ما لمستها أثناء معرفتها به.

لكنها لا تستطيع التعليق الآن. فقد تقدم الكاهن إلى الأمام بادئاً المراسيم، واستدار رونان نحوها. وأمسك يدها بيده القوية الدافئة، فرأت نظرة الإعجاب في عينيه وهو يتأملها من رأسها إلى أخمص قدميها.

في تلك اللحظة بدت الكنيسة والمحتشدون فيها وكأنهم استحالوا جميعاً إلى سحابة ملوّنة، فلم يعد هناك سواها وسوى رونان وعهود الزواج بالحب والوفاء والإخلاص لبعضهما البعض بقية حياتهما.

وطوال الاحتفال، كان في أعماق تينك العينين الزرقاوين رغبة تحترق؛ هي من القوة والتلهف بحيث تبعث فيها أحاسيس محمومة لا تليق بهذا المكان أو بهذه المناسبة الرصينة.

ولكن بعد انتهاء الطقوس، وانتقالهما إلى حفلة الاستقبال في فندق مجاور، لم تعد ليلي تستطيع أن تكتم خيبة أملها أكثر، فالتفتت إلى رونان معنفة.

ـ لماذا قصصت شعرك؟

ـ مبروك لك أيضاً.

كان هذا جوابه السريع الساخر، وقطب حاجبيه الأسودين المستقيمين

قليلاً وهو يتابع: «ومهما حدث، فأنا أحبك، يا زوجتي العزيزة. وأنا سعيد جداً لأنني أصبحت زوجك».

إحساسها بما وراء كلماته هذه، التي لم تتوقعها، جعلها تمسك نفسها عما كانت تنوي قوله، لتردد بحذر، جملته: «أحبك يا.. يا زوجي العزيز».

هل هذا صحيح. أيمكن أن يكون رونان قد أصبح زوجها حقاً؟ بعد تلك الأيام الحافلة بالشوق، والليالي الحالمة بهذه اللحظة، بدا لها مستحيلاً أن تتحقق تلك الأحلام أخيراً.

ـ وأنا سعيدة جداً لأنني أصبحت زوجتك.

ـ أحقاً؟

لقد أحست، مرة أخرى، بذلك التشديد المقلق على الحروف بحدة. كانت عيناه ناراً فضية وهي تستخلص الجواب من أعماق روحها.

ـ هل أنت سعيدة؟ سعيدة حقاً؟

فارتجف صوتها لعنف هذا الاستجواب غير المنتظر: «طبعاً أنا كذلك. ما هذا يا رونان؟ استنطاق أسباني؟».

ـ أردت التأكد فقط.

ـ التأكد!

أرسلت رغبة رونان المفاجئة للإطمئنان في كيانها موجة من البهجة والإثارة، غمرت قلبها بمزيد من الحب. ففكرة أن يظهر رجل متميز وناجح، مثل رونان، ويتحدّث بمثل هذه المشاعر العميقة جعل عينيها تغرورقان بدموع حارة.

ـ أواه يا رونان! وكيف لا أكون متأكدة؟ لقد تزوجت لتوّي الرجل الذي أحب وأقسمت على ذلك أمام العالم أجمع..

قاطعها بصوت خشن: «ما عدا ديفي».

فأجابت بهدوء: «نعم، ما عدا ديفي».

سالت دموعها هذه المرة لسبب مختلف تماماً. فسعادتها كانت لتكمل

كلياً لو كان أخوها حاضراً اليوم.

- ليتني تمكنت من الاتصال به!

- وكذلك أنا.

قال رونان ذلك بحدة فنظرت إليه بدهشة: «لم أكن أعلم أن أمره يهمك إلى هذا الحد».

- حسناً، فلنقل أنني كنت أفضل لو قابلت أخاك قبل هذا اليوم.

وحوّل عينيه عنها محدّقاً إلى الخارج عبر القاعة المزدحمة. أيقنت ليلي أنه لم يكن يحدق بالمدعوين المتألقي الملابس، الذين كانوا يضحكون ويثرثرون، عندما عاد ينظر إليها بملامح غامضة يصعب تحديدها. وتكلم مرة أخرى، فتملكها شعور غريب بأن الموضوع الذي كان يشغل أفكاره لا يمت إليها بصلة.

- إننا إنسانان راشدان وعصريان ومع ذلك لا نستطيع أن نستدعي ولو فرداً واحداً من أقربائنا.

- أعرف هذا..

وتنهدت بأسى وهي تفكر في والديها اللذين قُتلا في حادث مأساوي وهي في السابعة عشرة من عمرها، وديفي الذي يصغرها بست سنوات. لو بقيا حيين لشاركاها سعادتها وهما يريانها اليوم عروساً. ولم يساورها الشك للحظة في أنهما كانا سيوافقان على هذا الصهر الوسيم ذي القامة الفارعة، الذي يعشقها.

من المحزن أن رونان كان أيضاً وحده.. فعندما سألته عن أقاربه الذين سيدعوهم إلى العرس، رد عليها باقتضاب: «ليس لي أسرة.. ولكن سأعطيك قائمة بأسماء أصدقائي، إن شئت».

وعوّض عدد أصدقائه عن الأقارب، حتى أن بعضهم أحدث ضجة كبرى في هذه المدينة الشمالية الصغيرة ستدوم فترة طويلة بعد انتهاء الزفاف.. فبصفته رجل أعمال واسع الثراء، كانت له اتصالات بأشخاص يماثلونه ثراءً وشهرة. وقد حضر معظمهم حفل الزفاف اليوم.

لكن هذا لم يعنِ أن الفرصة سنحت لها للتحدث إليهم، فقد أبقاها رونان بجانبه طوال الوقت فلم تجد الفرصة للتعرف على ضيوفه.

وقطبت حاجبيها قليلاً عندما شاهدت أحد أصدقاء رونان، «كونور فيت باتريك» في حفل الزفاف. ففي اليوم السابق للعرس، بدا عليه الشرود عندما قدموها إليه، وأخضعها لفحص شامل بعث فيها اضطراباً واضحاً. أما «هانا»، صديقتها الحميمة وإحدى وصيفات العروس، فقد نجحت في التقرب منه على حلبة الرقص، بينما كان يمنحها ابتسامة واسعة للملاحظة أدلت هي بها.

- لِمَ هذه النظرة السوداء؟

سألها رونان ذلك وهو يرى تغيّر ملامحها.

- لديّ إحساس بأن «كونور» ليس راضياً عني ولا يشعر نحوي بمودة.

لمعت تانك العينان الفولاذيتان بسرعة وهما تحدقان بصديقه، وعاد من جديد ليقطب جبينه. لكن رونان عاد فالتفت إليها ورماها بابتسامة بدّدت مخاوفها الحمقاء ثم قال لها بنعومة: «وما الذي لا يرضيه فيك، أيتها الحمقاء الصغيرة؟ الحقيقة هي أنني لم أكن، قبل الآن، من النوع الذي ينشد الاستقرار. ولكن، حبنا هذا كان أشبه بزوبعة غرامية.. لقد صرعني حبك وأنا عاجز عن استعادة توازني».

* * *

في تلك اللحظة طمأنتها هذه الكلمات.. وتملكت ليلي التعاسة وهي تعود مرغمة إلى حاضرها لتجد نفسها تحدّق في الباب الذي خرج منه رونان لتوّه. لكن تلك الكلمات كشفت الآن عن خداع بالغ القسوة والوحشية وهو يعلن أنه راحل من دون عودة.

دفعها صوت الباب في الطابق الأسفل وهو يُفتح، إلى النهوض. ما الذي تفعله بجلوسها هنا بهذا الشكل، تاركة رونان يرحل؟ إنه زوجها! لم يمض على زواجهما أربع وعشرون ساعة بعد. فهل ستدعه يرحل من دون مقاومة؟

قفزت من سريرها برعب، واختطفت عباءتها عن كرسي بجانب السرير . . ارتدتها وأحكمت شدّ الحزام على خصرها وهي تنزل السلم.

كان الباب الأمامي مفتوحاً على مصراعيه، وأشعة الشمس تتسلل من خلاله . . شعرت بغصة في قلبها أمام هذه الطبيعة المشرقة، التي تتناقض مع الإحساس الأسود بالهلع الذي ينتابها.

- رونان!

كان قد خرج من المنزل ووقف بجانب سيارته يضع حقيبته في الصندوق، فأخذ قلبها يخفق وهي تدرك مصدومة أنه كان يعني حقاً ما قال. لأنها حتى هذه اللحظة، لم تفقد الأمل في أن ينتهي هذا الكابوس.

- رونان، انتظر!

لكنه تجاهلها، وحوّل وجهه بعيداً عنها وقد بدا من تصلب جسمه أنه يرفض أن يلين أمام تضرعاتها . . هبطت الدرجات قائلة: «أرجوك، لا تفعل هذا . . لا يمكن أن تفعل بي هذا يا رونان، لن أسمح لك بذلك».

لكن رونان أغلق غطاء الصندوق ببطء متعمّد. وتردد صدى ارتطام الغطاء، في رأس ليلي، وكأنه يذكرها بالأبواب الفولاذية التي صُفقت في وجهها، وصوت الساعة تعلن ساعة الفراق المرعبة.

لكنه ما لبث أن التفت نحوها وإذا بمنظر وجهه ينسيها كل الأفكار التي تجول في رأسها مخلفاً مكانها فجوة باردة من الرعب.

لم يكن هذا رونان! لم يكن هذا الرجل الذي أحبته من كل قلبها، ومنحته نفسها منذ يوم واحد فقط! فقد خيل إليها أن رجلاً غريباً دخل إلى البيت، وأمسك بجسد رونان وانتزع منه روحه، تاركاً من ذلك الرجل الذي أحبت الهيكل فحسب.

لكن العينين كانتا مختلفتين. كانتا صلبتين وباردتين كالفولاذ، مهلكتين كنصل خنجر، ومنيعتين كمصراعي باب حديدي.

- لا يمكنك أن . .

حاولت الكلام، لكن صوتها خانها.

قال متحدثاً بسخرية، وهو يلقي عليها نظرة فاترة كتيبة كأيام الشتاء القارسة البرودة: «يمكنني أن أفعل ما أريد، حاولي فقط أن تمنعيني».

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ تذكري هذا!

لم تتوان ليلي عن القيام بأول شيء خطر ببالها.

ركضت نحو رونان، غير عابئة بأنها لا ترتدي إلا تلك العباءة الحريرية الخضراء، وتشبثت بكم سترته بكل ما لديها من قوة.

ـ لن أدعك ترحل قبل أن تطلعني على السبب! أنت مدين لي بهذا على الأقل.

عادت هذه الكلمات فاختفت في حلقها وهي ترى العدائية في عينيه، ثم أبعد يدها عن كمه باستخفاف مهين: «لست مديناً لك بشيء».

قال ذلك بأنفة وهو يسوي سترته على كتفيه قبل أن يفتح باب سيارته.

ـ وإن كان هناك من ديون فأنت من عليها تسديدها.

ـ أنا.. آه.. لا.. لا ترحل.

وإذ رأته على وشك الصعود إلى مقعد القيادة، عادت تندفع إليه.

في الليلة الماضية أمسكت به بهذا الشكل، لكنه كان حينذاك أليفاً دافئاً، لا غريباً عدوانياً كما هي حاله الآن.. كان حينذاك قد نهض من السرير لسبب ما ووقف يحدق من النافذة فلحقت به كما تفعل الآن.

لكن الأمر، حينها، كان مختلفاً كلياً، إذ تجاوب معها على الفور وكشفت ردة فعله عن شوقه إليها، مما دفعها للانفجار ضاحكة.

وكان رونان قد تأوه هو أيضاً مسروراً. ولكنها في اللحظة الراهنة شعرت بطعنة ألم قاسية أوهنتها. وهذا الوهن الذي شعرت به جعل من السهل على رونان أن يخلّص نفسه منها بقوة قذفت بها بعيدة. فدارت حول

نفسها ثم ارتطمت بعنف بجانب السيارة.

فقال بصوت خشن: «أنا راحل يا ليلي، ولن تردعيني مهما فعلت».

لم يكن من السهل عليه قول هذا، فنظرة واحدة إليها فقط كفيلة بأن تجعل كل عصب في جسده يضج بالشكوى والحب والتوتر، ولكم هو متلهف إلى تلك المشاعر الجميلة التي جمعتهما.

عندما بدأ يتصرف على هذا الشكل، اعتقد أن بإمكانه أن يعزل مشاعره عنه، ولم يضع في الحسبان رغبته الشديدة فيها، تلك الرغبة التي قد تدمره إن لم يقاومها بعناد وقد تجعل خطته رماداً.

وبدلاً من أن يلتفت إليها بكل ما في مشاعره من شوق إليها، ابتعد عنها بكل قوته.

مزق اليأس قلب ليلي وهي تراه يستقر وراء عجلة القيادة ويدير المحرك؛ يأس ممزوج بمشاعر تملكتها جعلت من الصعب عليها التفكير بوضوح.

لم تذق من حب هذا الرجل سوى ليلة واحدة.. ولم يمض على زواجهما سوى ساعات قصيرة.. لكنها عرفته بشكل جعلها أشبه بجارية من الزمن القديم، مدموغة بوشم سيدها. كان يكفي أن تراه حتى تقفز حواسها إلى حياة نابضة متوثبة، وحتى يلتهب كل عرق فيها بالحنين والحب واللهفة إلى ما يبعثه حبه في قلبها.

وكما الآلة الموسيقية التي تتجاوب مع مهارة أداء صاحبها، لم يكن عليها إلا أن تشعر بدفئه، وتشم رائحته، وتشعر بخفقات قلبه، لكي تضيع تماماً، وتؤدي اللحن الذي قرر أن يعزفه.

ولكن عليها أن تتصرف في الحال، قبل أن يرحل إلى الأبد. لم تشك للحظة واحدة في أنه كان يعني ما يقول. فالاقتناع باد على وجهه، ولو أنها لم تكن تعرف السبب.

مدّ إحساس مفاجىء بالذعر أفكارها بفكرة يائسة، فكرة جنونية. وقبل أن تمنح نفسها وقتاً قد يفقدها جرأتها، اندفعت نحو غطاء محرك

السيارة تتسلقه جامعة حولها معطفها أثناء القيام بذلك.

فهتف بغضب بالغ: «ليلي! انزلي من هناك!».

ـ حاول أن ترغمني على ذلك!

وإذ بصوت المحرّك يدوي بعنف، ويثير فيها الخوف من أن ينطلق بالسيارة وهي ما زالت جاثمة على الغطاء. وتصورت، برعب، هذه السيارة القوية وهي تنهب طريق المنزل، متعرجة بوحشية في سيرها لتجعلها تسقط، فجمد الدم في عروقها. وكانت أفكارها قد وصلت إلى النقطة التي أخذت فيها تتخيل ما قد يحدث لها من ضرر إن هي وقعت عن هذه السيارة المسرعة، على الطريق المرصوف بالحصى.. ولكن رونان رفع قدمه عن دواسة البنزين وتلاشى صوت المحرك..

لم تكد ليلي تلتقط أنفاسها حتى انفتح الباب بعنف وخرج منه رونان مندفعاً نحوها بخطوات واسعة، وقد بدا الغضب على وجهه: «ليلي..».

وعندما وقف بجانبها أخيراً، واضعاً يديه على وركيه وعيناه تلتهبان غضباً.

ـ أنت لا تسهلين الأمور عليّ.

قال لها ذلك مصراً على أسنانه.

ـ وأنا لا أريد أن أجعلها سهلة.. أريد أن أجعل هجرك لي بالغ الصعوبة.. لأنني..

ـ ما بالك تتضرعين إليّ أن أبقى بينما أوضحت لك أن هذا آخر ما أريده في هذا العالم؟ فأنا لا أطيق رؤيتك؟

ـ لكنك الليلة الماضية..

ـ بات ذلك من الماضي. كانت غلطة مروّعة.. اضطراباً عقلياً، وهذا ما لا أريد أن يتكرر ثانية.

ـ لم يبد لي الأمر كذلك.

ولكن أي خبرة كانت لها في هذه الأمور؟ فقبله لم تعرف أي علاقة.. لم تعرف النار التي أشعلها رونان فيها.. نار لم تكن تدري بوجودها، نار

دمّرت عالمها من شدّة قوتها، وجعلت زمام الأمور يفلت من يدها. فقد أصبحت مع رونان امرأة أخرى.. امرأة عاشقة مُحبّة.

وانفجرت فيه قائلة: «كانت رغبتك في ذلك تضاهي رغبتي تماماً..».

ـ ليست النساء وحدهن قادرات على تزييف مشاعرهن.

رد رونان عليها بقسوة اضطربت لها أفكارها.

ـ آه! علمت الآن أنك تكذب، لأن لا شيء في ليلتنا الماضية كان زائفاً.

لو صدّقت كلامه، لتدمّر كل شيء.. كل ذكرياتها عن ليلة عرسها.. الليلة التي اعتقدت أنها سجلت فيها بداية أروع جزء في وجودها.. الليلة التي أدركت الآن أنها لن تحصل على سواها في حياتها الزوجية.

لم تكن تعلم شيئاً عن المنزل أيضاً، فقد كانت مفاجأة أخفها رونان بها في آخر لحظة أيضاً عندما غادرا قاعة الاستقبال واستقلا السيارة. لقد حسبت أنهما سيقصدان المطار ومنه إلى المكان الذي سيقضيان فيه شهر العسل. وبعد أن توارى عن الأنظار آخر الملوّحين بأيديهم قال لها: «تغيرت الخطة، ستقلع طائرتنا عند الثالثة من بعد ظهر غد».

ـ بعد ظهر غد؟

ـ ولكن أين سنمضي ليلتنا؟

فأجاب بابتسامة صغيرة غامضة: «دعي الأمر لي، لقد تدبرت كل شيء. سلمي أمرك لي وانظري ماذا يحدث».

ارتجفت وهي تعود بأفكارها إلى تلك اللحظة، وتسمع تلك الكلمات مرة أخرى، إذ أن شيئاً ما في الطريقة التي تكلم بها رونان جعلها تشعر بالغثيان.

في الليلة الماضية، أنهكتها أحداث النهار ونشوة التفكير في أنها أصبحت «السيدة رونان غيرين»، فلم تشعر بهذا الخطر المحدق.

ـ أتلهف لأكون معك.

تمتمت ذلك بحب وابتسمت عندما رأته يتجاوب بشكل غريزي.. فزجرها ضاحكاً: «حاذري أيتها الساحرة».

ولكنها تجاهلت احتجاجه قائلة: «طيلة الشهرين الماضيين وأنا أتوخى الحذر في تصرفاتي مما زادني إحباطاً».

- وذنب من هذا؟ أذكر جيداً أنك أنت من أصر على التأجيل حتى يوم الزفاف.

- وها قد وصل يوم الزفاف، وليس علينا أن ننتظر أكثر من ذلك. إننا الآن زوجان شرعيان وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي..

- ليلي.. أرجوك.. كوني عاقلة.

- آه، سأكون عاقلة.

لكن لهجتها منحت كلماتها معنى غير الذي كان يقصده.

- سأكون عاقلة جداً، لا بل أفضل من عرفت من النساء. ولكن لمَ لا تضغط على البنزين؟ أريد أن أصل في أسرع وقت ممكن.

- سمعاً وطاعة!

وانطلق رونان بالسيارة بسرعة البرق متجهاً إلى ناحية الريف.

استحال دفء النهار، إلى مساء خانق غير مريح بينما كانت السيارة تعبر طريقاً متعرجاً لتصل في نهايته إلى مبنى فخم.

- أوه...

أخذت ليلي تحدق فيه بحيرة وإعجاب بالغين.

كان المنزل مبنياً من حجر قد نعّمه مرّ السنين، وله مدخل أنيق مزيّن بالأعمدة، ونوافذ يعكس زجاجها تألق الشمس المائلة إلى الغروب، أما نصف الواجهة الأمامية فكان مغطى باللبلاب المعترش الذي امتد فوق سطح مستنبت زجاجي من العهد الفيكتوري..

- ما أروع هذا المكان، لمن هو؟

- بيتك.. وبيتي.

- بيتنا؟

بلغ الذهول منها مبلغاً فلم تلحظ الفاصل الواضح بين كلمتي رونان، وتابعت قائلة: «ولكن كيف؟».

- لقد اشتريته. أليست هذه هي الطريقة المعتادة لاقتناء منزل.

- طبعاً، أعرف هذا.

وقرصته في ذراعه مداعبة: «متى..».

- وقّعت العقد الأسبوع الماضي، آه، أعرف..

كان قد لاحظ التعبير على وجهها ففسره بدقة: «قال كونور إنه كان عليّ أن أستشيرك، ولكن حالما رأيت البيت، أدركت أنه سيعجبك جداً».

- وكنت محقاً.

خفف واقع تفهمه لها من الوخزة الحادة التي شعرت بها وهي تخاله من الاستبداد بحيث يتخذ القرارات من دون الرجوع إليها.

- كانت شقتك تلك ستعوقنا عن الحركة.. اخترت هذا المنزل لأنه قريب من المدينة فتتمكنين من الذهاب يومياً لمراقبة عملك. وبصفتك صاحبة أحسن متجر للزهور، عليك أن تقطني في مكان أرقى من ذلك الصندوق ذي الغرفة الواحدة.

- كما أنه ليس بعيداً عن الطريق العام.

- والآن، هل تأملته بما يكفي؟ فالعاصفة على وشك أن تهب، وإن لم نسرع بالدخول، فسيغرقنا المطر قبل وصولنا إلى الباب.

وسرعان ما صح كلام رونان.. إذ ما إن أخرجا حقائبهما من السيارة ووضعاها في الردهة ذات القرميد الأبيض والأسود، حتى دوى الرعد وبدأت الأمطار تضرب على النوافذ.

- آه، ما أقربه!

وقفزت بشكل مبالغ فيه، والتصقت برونان.

- لا أظنك تخافين من الرعد؟

نظرت إلى وجهه المذهول، ضاحكة: «أنا لا أخاف منه، ولكنه عذر ملائم».

- هذا يكفي، ألا تريدين أن تري بيتك الجديد؟.

- ربما غرفة النوم.

وابتسمت بخبث: «أما بقية المنزل فأراه في وقت آخر».

كان منزلاً واسعاً، مليئاً بالممرات القصيرة. وبينما كانا يتفحصان كل شبر في المنزل، أرخى الظلام ستاره، وتحول الرعد إلى زئير منخفض بعيد وتوقف البرق عن الوميض. خلّف تراجع العاصفة موجة من البرد القارص. وعندما عادا إلى غرفة الجلوس الأنيقة لم تتمالك ليلي نفسها من الارتجاف، فقطب رونان جبينه قائلاً: «هل تشعرين بالبرد؟ هل أشعل المدفأة قبل أن نتعشى؟».

نظرت ليلي إلى المدفأة الواسعة التي يعلوها رف خشبي ويحيط بها قرميد مزخرف، وازداد ارتجافها الذي تحول إلى خوف حقيقي، ثم أجابت بسرعة: «لا، شكراً».

ـ لكن البرد هنا قارس، والجلوس أمام ضوء لهب المدفأة يخلق جواً شاعرياً.

لهب المدفأة..

ووجدت ليلي نفسها تعود إلى الماضي.. إنها ترى الآن غرفة أخرى، غرفة مختلفة تماماً عن هذه الغرفة الفسيحة المطلية باللونين الأخضر والذهبي. إنها ترى الآن ذلك الأثاث المريح الرث، والشجرة المنتصبة في إحدى الزوايا، والزينة الورقية المعلقة على الجدران، والمجسمات الصغيرة لبيوت وأشجار.

وأمام اللهب، وقف صبي صغير أشقر الشعر مادّاً يده إلى شمعة، ثم جمد مكانه عندما صاحت به محذرة. في تلك اللحظة استطاعت أن تمنع ديفي. ولكن النيران اشتعلت في ما بعد فجأة، ووصل لهبها إلى الزينة الورقية على الجدران ومنها إلى الستائر، ليشتعل المكان فجأة ويتحول إلى كتلة من النيران المضطرمة..

ـ ليلي؟

أعادها صوته إلى الحاضر وهي تطرف بعينيها مشتتة الذهن لحظة. ولكنها ما لبثت أن أدركت أن الواقف أمامها، هو رونان وأنّه هو الذي تلفظ

باسمها. عند ذلك، أرغمت نفسها على الابتسام: «لا تشعل النار، فالبرد ليس شديداً. كلّ ما أحتاج إليه هو شراب ساخن يدفئني..».

يوماً ما ستخبر رونان بقصة تلك الليلة المريعة. فهي لم تتمكن من تحمل إخباره عن الحادث الذي تعرض له والداها.

ولكن ليس الليلة.. فلا المكان ولا الزمان يسمحان بذلك. قد يفسد هذا عليهما هذه الليلة الخاصة التي طال انتظارها لها.

ـ هل في قصرك هذا طعام؟

ـ طبعاً، سبق أن أخبرتك بأنني تدبرت أمر كل شيء.. تعالي معي.

أخذها إلى مطبخ ريفي واسع من دون أن يجولا في المنزل. كان على المائدة المصقولة المصنوعة من خشب الصنوبر، أطباق صينية فاخرة تحتوي على أنواع مختلفة من أطعمتها المفضلة.

ـ هيا، تفضلي.

دهشت ليلي حين أدركت أنها تتضور جوعاً. كانت من التوتر هذا الصباح بحيث لم تذق شيئاً من الطعام. وأثناء الغداء، ملأت طبقاً بمختلف أنواع الطعام وأخذت تأكل بنهم، وهي تشكر رونان. وعندما انتهت، هتفت قائلة: «كان الطعام لذيذاً للغاية».

انتبهت فجأة إليه جالساً أمامها يراقبها عن كثب من دون أن يأكل شيئاً. نظرت متسائلة في تينك العينين الرماديتين اللتين بدتا الآن قاتمتين.

ـ ألست جائعاً؟ هذه الفطيرة لذيذة جداً. تناول بعضاً منها..

وناولته قطعة صغيرة منها، ولكن بدلاً من أن يأخذ الشوكة منها، مال نحوها حتى أصبح وجهه على مقربة من وجهها، وفتح فمه وكأنه طفل صغير..

وضعت القطعة على لسانه باسمة، وإذا بها تشعر بنفسها كالمسحورة، غير قادرة على رفع نظراتها عنه وهو يمضغ الطعام ثم يبتلعه بحذر، من دون أن يحوّل عينيه عن عينيها.

سألته بصوت ازداد بحة وعمقاً: «ماذا تريد أن تأكل بعد الخبز؟».

قطعة صغيرة محمصة مدهونة بالزبد، تبعتها بقطعة جبن. لكن ليلي استعملت هذه المرة أصابعها في إطعامه.

ـ بعض السلمون المدخن.. والهليون.. و..

أخذت تسرع في انتقاء الأطعمة، حتى لا تبعد نظراتها عنه. كانت عيناها تعودان بسرعة إلى نظراته الثاقبة المصممة بينما أصابعها تتحرك وحدها فوق أطباق الطعام.

بدأت أنفاسها تتسارع، وخفقات قلبها تشتد قوة، وشعرت بجسمها يستحم بوهج الشمس الساطع بدلاً من ضوء القمر الهادىء.

ـ آه، وهذه حبات الفريز..

تحرك هذه المرة بسرعة أكبر مما كانت تتوقع، فاحتكت أسنانه بأناملها. وإذ برعشة تسري في ذراعها، جاعلة إياها ترتجف.. شعرت بجفاف في حلقها فأخذت تبتلع ريقها بحدة وتبلل شفتيها ببطء. وخفق قلبها بعنف وهي تراه يلقي نظراته إلى وجهها المتوهج: «أتريد شيئاً من القشدة على الفريز؟».

وغرفت القليل منها من الإناء، مبعدة أصابعها سنتمترات عن فمه.

ابتسم رونان ببطء وإغراء، ثم مال بحذر متعمّد، إلى الأمام، فالتهم الحبة بفمه الدافىء.

ـ رونان!

وعندما ابتعدت عنه قال بصوت أجش: «أظن.. أظن، يا زوجتي، أن الوقت قد حان».

ثم نهض واقفاً ومدّ يده إليها، وهو يقول بلهجة حائرة بين الأمر والتوسل: «تعالي معي.. تعالي.. الآن».

راحت أنفاسها تشتد قوة، ورأسها يزداد دواراً، مما جعلها عاجزة عن التفكير أو النطق بكلمة مفهومة.

كانت تشعر فقط بكل عرق في جسدها ينبض حياة.

أطلقت ليلي العنان لمشاعرها بعد أسابيع من الكبت، مما فتح الأبواب

لطوفان من المشاعر العاصفة التي لن تغلق الأبواب أمامها بعد اليوم.

قال وقد أظلمت عيناه بالمشاعر المحمومة: «الليلة، يا سيدتي، يمكنك أن تحصلي على كل ما تريدينه».

كان عليها أن تفكر بتلك الكلمات المراوغة ولكنها في خضم هذه المشاعر القاهرة لم تشعر بخطر ما، أو بأن هناك إشارة إلى ما ينتظرها وراء سعادتها هذه.

ـ أي شيء..

ـ ولكن أولاً..

واستدار مبتعداً عنها لحظة، ثم تناول علبة صغيرة كان قد ألقاها على منضدة السرير الجانبية، ثم فتحها.

ـ لسنا بحاجة..

ولكنه أسكتها بوضع إصبعه على فمها برفق: «بل نحن بحاجة إليها، لا أريد أطفالاً في الوقت الحالي. أريدك لي كلّك ولأطول مدة ممكنة».

أرسلت هذه الكلمات في كيانها فيضاً من البهجة الخالصة.

ـ وهذا يناسبني.

ثم عادت وقطبت جبينها وتذمرت برقة قائلة: «لماذا قصصت شعرك؟».

ـ حسبت أنه لا يناسب وضعي الجديد كرجل متزوج.

ـ ولكن لو كنت تعلم كم حلمت بهذه اللحظة، وكم كنت أتوق لمداعبته بأصابعي..

ـ أنت تبحثين عن المتاعب.

ـ أحقاً؟

وفتحت عينيها متصنعة الدهشة، ثم تمتمت تقول: «أتعلم؟ أظن أن هذا ما أفعله بالضبط».

وكان حبها يتضاعف كل ثانية. وسمعت نفسها تقول ضارعة: «رونان.. أريدك..».

عند ذلك فقط، تقدّم منها، رأته يتردد، ثم رأت شيئاً يشتعل في عينيه المظلمتين جعل قلبها ينتفض بخوف غريزي. لكنها ما لبثت أن نسيت كل شيء بعد ذلك بثانية واحدة.

ومع أنها كانت تهتف باسمه، لم تسمعه يهتف باسمها قط.. ولم تسمعه يقول كلمة حب رقيقة تعبّر عن البهجة التي كانت تمتلكه، واكتفى بالقول: «تذكري! تذكري هذا يا ليلي! تذكري!».

تتذكر.. وكيف لها أن تنسى؟ كيف لها أن تنسى ليلة عرسها الأولى بكل تفاصيلها؟ كل لحظة منها انطبعت في ذهنها، ولن يمحوها شيء من ذاكرتها طالما هي حيّة، طبعاً فكل ما عرفته فيها لا يُنسى أبداً.

* * *

٣ ـ العذاب.. رجل

لا يُنسى..

لسعت هذه الكلمة قلب ليلي، فسرت البرودة فيها حتى العظم.. إذ وجدت نفسها تستيقظ على الكابوس وهو كل ما بقي لها من حياتها الزوجية.. ولكن كيف لها أن تعيش ومشاهد تلك المشاعر قد حفرت في أعماق روحها؟

لكنها اضطرت للخروج من هذه الذكريات لأن رونان قال شيئاً لم تسمعه، ولم تفهمه، فطرفت بعينيها من دون أن تفهم: «من الأفضل أن نتكلم في الداخل».

ونظرت إليه بارتياب، وهي تردد: «نتكلم».

لاح لها بصيص من الأمل.. وكأنه يريد فتح باب للنقاش، بدلاً من الاكتفاء بتوجيه إنذار نهائي.

عليها أن تنزل عن السيارة ليدخلا معاً إلى المنزل. ولكن إن كان وضعها السخيف هذا يمنعه من الرحيل فلن تتخلى عن فرصتها الوحيدة. فأجابته بتوتر: «هل هناك ما نتحدث عنه؟ قلت لي إن كل شيء انتهى وها أنت تقول الآن إنه علينا أن نتناقش..».

وسكتت بحدة وهي تراه يهز رأسه بغضب، وقال بعناد: «لا مجال للمناقشة، أردتك فقط أن تصغي إليّ».

ـ لن أتحرك من مكاني إذن، يمكنك أن تتكلم هنا.

www.elromancia.com

حاولت أن تصلح من جلستها، لتواجهه. ولكن كان عليها أن تبسط راحتيها على المعدن كي لا تنزلق على الأرض.

ـ آه، بحق الله عليك.

لم تجد ليلي وقتاً لتتكهن ما ينوي فعله، وإذا بها تطلق صرخة ذعر حادة عندما وضع ذراعاً تحت كتفيها ودفعها عن السيارة.

ـ رونان.. أنزلني على الأرض.

لكن احتجاجها العنيف ذهب هباء، وسار بها نحو باب البيت، وهو يتمتم قائلاً: «لم أحملك عند العتبة وأنت عروس».

أثارت لهجة السخرية التي تكلم بها توترها.. رفس رونان بقدمه الباب، ودخل إلى غرفة الجلوس الأنيقة بلونيها الأخضر والذهبي، ليلقي بها على كرسي كبير دونما اهتمام.

ـ والآن.. آه، لا.

وتحرك بسرعة وهو يراها تقف محاولة أن تهرب، وقبض على كتفها بقوة ليعيدها إلى الكرسي وثبتها عليه.

ـ أي نوع من المزاح هذا يا رونان؟ الأمر ليس مضحكاً، صدقني..

ـ لست أمزح، هل أبدو مبتهجاً؟

قال ذلك بلهجة خشنة خالية من المزاح، تدل على رغبته بالانتهاء من هذه المسألة.

لم يتوقع منها قط أن تقاتل طويلاً بمثل هذه الشراسة، فقد حسب أنه في مثل هذا الوقت، سيكون بعيداً عن مدينة «إدجرتن» وقد أنجز رسالته، تاركاً حطام زواجه المزعوم خلفه ليلملمها «ديفي كورنويل»، إن عاد إلى الظهور.

ولكنه، غير قادر على الابتعاد. وكأن ليلي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياته. والأسوأ من ذلك، هو أنه بدأ يشعر بالأسف نحوها.. ولكن عليه أن يكبح مشاعره، لأن الشفقة هي عاطفة لا ينبغي أن يدخلها في حسابه.

ـ أخبريني شيئاً.. هل كنت صادقة عندما قلت إنك أحببت هذا البيت؟.

أربكها تغييره المفاجيء للموضوع.. ومع أنها لم تعرف سبب هذا السؤال، لم تستطع سوى قول الحق: «طبعاً أحببته، إنه رائع الجمال، ولكن..».

ـ إذن فهو لك.

بدا لها وكأن الأرض قد زحفت تحت قدميها ولم يعد تحتهما شيء ثابت تقف عليه.

ـ ولكن لا بد أنه كلفك كثيراً.

فقال بعدم اكتراث: «تقريباً، لكنني كنت أعلم أنني إذا تزوجتك فستتوجب عليّ مسؤوليات قانونية، وتقبلت فكرة أن أدفع لك نفقة..».

ـ لا أريد أموالك! أنت تعرف أنها ليست سبب زواجي بك.

ـ حسناً، هذا كل ما أستطيع أن أقدمه لك.

ـ ولكن لماذا؟

وهزت رأسها بارتباك، وقد أثار سلوكه حيرتها: «لماذا تزوجتني إذاً..؟».

لم تستطع أن تكمل كلامها بعد أن سمّرها في مكانها بنظرة وحشية مفاجئة من عينيه الشفافتين. لكن وميض الخطر الذي ألجم لسانها تناقض مع اللامبالاة التي هز بها كتفيه وهو يقول محذراً: «لا تسألي يا ليلي، لأن الجواب لن يعجبك».

ولكنه لن يخبرها، مهما كانت الشمانة التي قد يحصل عليها نتيجة إطلاعها على القصة بأكملها. فقد عاهد نفسه على أن يتكفل ديفي بالموضوع. ليواجه ما يعنيه تدميره لحياة أخته، وتحطيمه لحياتها بسبب سلوكه الأثيم.

وردّت ليلي بحدة: «ليس الجواب هو الذي يقلقني، بل السؤال وحثك إياي على طرحه».

رباه، ليته لا يرى تأثير تعليقه الأخير ذاك عليها!.

فأكثر ما آلمها هي تلك اللهجة العفوية الخالية من المشاعر، وصوته

الهادىء المسترخي.

هل هذا هو حقاً الرجل الذي تعهدت أمام الكاهن بأن تحبه وتحترمه بقية حياتها؟ أهو الرجل نفسه الذي قطع لها العهد نفسه أمس فقط؟

دقت الساعة العاشرة والنصف، وشعرت بطعنة سكين في قلبها وهي تتذكر أنها في مثل هذه الساعة من صباح أمس، كانت عائدة مع صديقتها «هانا» من محل مزين الشعر وهما تضحكان والبهجة تملأ قلبها.

ولكنها كانت متوترة أيضاً، من المستقبل الذي ينتظرها.. فهي لم تقدم على الزواج عن طيش، بينما رونان..

منحها الغضب قوة لم تعهدها من قبل، فأزاحت يده جانباً وهبت واقفة وقد التهبت عيناها.

ـ تعهدت أمس بأشياء معيّنة، وأعني تلك العهود المقدسة يا رونان! «أريد أن أحبك وأعيش معك وأحمل أطفالك».. العهود التي نطقنا بها عند عقد الزواج.

أتراها وصلت أخيراً إلى أعماقه؟ فقد لمحت تغيراً في ملامحه. إذ أرجع رأسه إلى الخلف بعنف وأسبل جفنيه على عينيه الفولاذيتين..

فتابعت تقول: «وظننتك تعني ما تقول.. فإن لم يكن ذلك صحيحاً، وإن جئت بي إلى هنا بدعوى زائفة، فأقل ما يمكن أن تفعله، هو أن تعطيني تفسيراً.. إنك مدين لي بذلك على الأقل».

ـ أنا لا أدين..!

بدت لهجته المنخفضة هذه مخيفة، لكنها لم تدع نفسها تتأثر بها، لأنها كانت تجاهد في سبيل حياتها التي حصلت عليها..

ـ أريد جواباً، يا رونان.

تحوّلت عيناه، هذه المرة، عن وجهها وقد عجز عن مواجهة نظراتها العنيفة المتألمة، وانخفضت عيناها فجمدتا فجأة وكأنهما شلّتا عن الحركة.

ـ رونان!

توهج وجهها بمزيج من الاضطراب والتوتر، وهو يقول صارّاً أسنانه:

ـ ربما تمكنت من التأثير بي ليلة أمس، لكن هذا مستحيل الآن.

ـ وربما سمحت لك بأن تنقض علي بمخالبك حينذاك، لكن ذلك لن يتكرر أبداً.

هبّت في وجهه تتحداه وهي تبتعد عنه. وجاهدت لتمحو من صوتها آثار الكدر والجرح في كرامتها، وسرّها أن تجعله هادئاً كما كانت ترجو.

فقال بابتسامة قاسية: «لم تسميها مخالبَ الليلة الماضية، حتى أنك تضرعت إلي..».

ـ حسبت الليلة الماضية أننا متزوجين!

فأومأ ببرودة: «هذا صحيح. وهذا هو الأساس في كل هذا، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

لكن لهجته كانت أبعد ما يكون عن التحبب.

ـ أتريدين حقاً أن تعلمي لماذا تزوجتك؟

لا.. توسل قلبها إليها أن تتفوه بهذه الكلمة، وتصرخ أنها لا تريد أن تسمع كلمة مما سيقول.. فبصيص الأمل في الخلاص الذي لاح لها في الأفق، عندما ركضت خلفه، انطفأ الآن..

لكن المنطق حثها على المطالبة بالسبب، وبالرغم منها ومن توسلات قلبها واحتجاجه، وجدت نفسها تومىء هامسة بشفتين جافتين: «نعم».

وجد نفسه عاجزاً عن إخبارها الحقيقة، خاصة وهي تنظر إليه بهاتين العينين الكبيرتين الذهبيتين، وقد بدت، أشبه بغزالة صغيرة تلاحقها كلاب الصيد. وأخذ يلعن بصمت أخاها الغائب، آملاً من صميم قلبه لو يستطيع أن يضع يديه حول عنقه ويخنقه.

لكن عليه أن يقول شيئاً، شيئاً فظيعاً يجعلها تتركه يذهب من دون اللحاق به.. وهذا لمصلحتهما معاً.

ـ إنها الطريقة الوحيدة للتقرب منك.

للوهلة الأولى لم تفهم تماماً ما يعنيه ولكنه أضاف قائلاً: «كنت أرغب فيك إلى درجة أنني لم أتوان عن الزواج بك..».

لكنه لم يكمل جملته إذ رفعت ليلي يدها من دون وعي منها، لتنهال عليه بصفعة مدويّة.

غص رونان بريقه، ثم رماها بتلك الابتسامة القاسية وهو يقول: «قلت لك إن الجواب لن يروق لك».

ـ أيها النذل.

للحظة واحدة، ظهر في عينيه بريق خطر جعلها تخشى انتقامه. لكنه سرعان ما سيطر على نفسه وهز رأسه قليلاً: «أظنني أستحق هذا. هل أنت مسرورة الآن؟».

ـ لا أظنني قد أكون يوماً أسوأ حالاً.

مضت لحظة لم تستطع فيها أن تفهم لماذا أحبته، أو أقنعت نفسها بذلك. لا بد أنها كانت مخطئة فكيف لها أن تحب رجلاً كهذا؟ ولكن رونان الذي عرفته ووقعت في حبه كان مختلفاً.

طردت هذه الأفكار الضعيفة من ذهنها إلى الأبد.. فرونان الذي اعتقدت بأنها تحبه، هو نفسه هذا الوحش الذي يقف أمامها.. وإن حاولت التفكير عكس ذلك، فستضعف أمامه، وتمنحه الفرصة للإساءة إليها من جديد.

ـ اخرج من هنا، يا رونان.

قالت ذلك وقد أراحها أن تسمع صوتها هادئاً منضبطاً حتى لا يشك في قوة اقتناعها بما تقول.

ـ أخرج وإياك أن تعود ثانية.

ـ إن لم تخنك ذاكرتك، فأنا من خطط لهذا منذ البداية. وأنت من أعادني رغماً عني إلى البيت.

ـ حسناً، أفضل الموت على أن أعاود الكرة، فجلّ ما أريد الآن هو أن ترحل من دون عودة.

ـ وهذا يناسبني تماماً. الوداع، يا ليلي. ليتني أستطيع القول إننا أمضينا وقتاً طيباً.

وانحنى ساخراً قبل أن يستدير على عقبيه.

أخذت ليلي تنظر إليه بصمت أخرس، وعندما اقترب من الباب توقف، واستدار ببطء قائلاً: «الحق معك، يا حبيبتي، فأنا نذل. ولكن عليك أن تسألي نفسك عما جعلني كذلك».

ـ لا يهمني! ولا أريد أن أعلم.. لا أريد أن أعلم أي شيء عنك! فكيف لي أن أميز بين الحقيقة والكذب في حديثك؟

ـ الحقيقة.

وأتبع هذه الكلمة بضحكة خشنة ساخرة بعيدة عن الهزل: «آه، نعم. الحقيقة. حسناً، ليلي، حبيبتي، إن كنت تريدين معرفة الحقيقة كلها، فلن تجديها عندي.. إن ذلك الجواب الذي آلمك هو جزء بسيط فقط من الحقيقة. فإن أردت معرفة القصة كلها، فعليك أن تسألي أخاك.. هذا إن شاء أن يخبرك.. والآن، سأرحل.. حقاً».

تركته هذه المرة يرحل، إذ ما بيدها حيلة.

وقفت تراقبه، وهو يصعد إلى سيارته ويشعل المحرك بهدير ينبيء بخروجه عن هدوئه وانضباطه.

عضت شفتها بقوة، رافضة السماح لدموعها بأن تنهمر قبل أن يغيب رونان عن ناظريها.

كانت الساعة الثانية عشرة. في مثل هذه الساعة، كانت تقف أمس على درجات الكنيسة باسمة سعيدة، وعريسها إلى جانبها.. بقيت زوجة له أربعاً وعشرين ساعة بالضبط وها قد انتهى الآن كل شيء.

كانت الشمس ترسل أشعتها من السماء الزرقاء الصافية. إنه يوم ربيعي رائع.. يوم رائع كان من المتوقع أن تبدأ فيه حياتها الزوجية. ولكنه تحول إلى يوم وضع حداً لزواجها حتى قبل أن يبدأ.

* * *

ـ اسألي أخاك.. اسألي أخاك.

بقيت هذه العبارة التي ودّعها رونان بها، تتردد في ذهن ليلي طوال الأيام الأربعة التي تلت.

ذلك الجواب.. هو جزء بسيط من الحقيقة، فإن أردت معرفة القصة كلها، فعليك أن تسألي أخاك.. هذا إن شاء أن يخبرك.

كانت ستفعل لو أمكنها ذلك، ولكنها لا تعرف شيئاً عن ديفي.

عندما حددا، هي ورونان، موعد ذلك الزواج، بذلت جهدها للعثور على أخيها المفقود، ولكن من دون جدوى.

منذ ثلاث سنوات وأخوها غائب عن حياتها.. فيوم عيد مولده السابع عشر، عادت إلى البيت لتجد غرفته مرتبة على غير عادة وخزانة ثيابه فارغة من ملابسه. واختفت قيثارته المحبوبة. فأدركت أنه لن يعود قريباً.

ساورتها الشكوك أو الآمال، لكن الورقة التي وجدتها على وسادتها بدّدتها كلها.

ـ أنا راحل لأجمع ثروة وأكتسب الشهرة. انتظري ظهوري على شاشة التلفزيون قريباً جداً.

وختم الرسالة بالتوقيع الذي أصبح يستعمله، محتقراً إسم أسرته ومعتبراً إياه صبيانياً بالنسبة إلى نجم «روك» مثله.

جاءت فجيعتها في هجر ديفي لها، لتحل في المرتبة الثانية بعد فجيعتها في موت والديها المبكر. ومع مرور الزمن، تحوّل ألمها لفراقه إلى شعور بالخسارة، فعاشت وهي تشعر بفجوة في حياتها وحده يستطيع أن يملأها.

وعلاوة على سخرية الحياة المرة التي شغلت بالها نهاراً وأرقتها ليلاً، أدركت الآن أن رونان هو الشخص الوحيد الذي كان على صلة بأخيها بعد أن ترك البيت.

ـ إن أردت أن تعرفي القصة بأكملها، فعليك أن تسألي أخاك..

كلماته هذه لا تعني إلا شيئاً واحداً. أن ديفي.. العنيف والأحمق أغضب رونان بطريقة أو بأخرى وأشعل في نفسه رغبة محرقة في الأذى والتدمير. ولكن ما الذي فعله يا ترى فولد هذه الرغبة بالانتقام لدى رونان؟

كان عليها أن تبدأ بالبحث عنه من جديد، وتقتفي كل أثر له. ولكن لبحثها هذه المرة، أهمية أكبر بكثير بعد أن أضيفت إليه تلك الرغبة الساحقة

في معرفة مدى تورّطه مع رونان.

منحت نفسها أسبوعاً، لتضمد جراحها وتذرف الدموع التي أقسمت على ألا يراها الناس.

وعندما انتهى ذلك، لملمت شتات نفسها، واستجمعت قواها، لتصنع درعاً تحيط به نفسها قبل أن تواجه العالم مرة أخرى.

لكنها من البشر وتحتاج إلى من يسندها، ويساعدها في محنتها. فاتصلت تليفونياً بأفضل صديقاتها، قبل أن تخونها أعصابها كلياً.

ـ هذه، أنا ليلي، أحمل لك خبراً سيئاً للغاية.

كل ما كانت ترجوه هو ألا يتداول الناس الموضوع لوقت طويل.

لكن ذلك الأمل لم يتحقق، فبالرغم من مضي أربعة أسابيع على عودتها إلى العمل، بقيت المدينة الصغيرة تضج بخبر الزواج الذي فشل.

ـ هذا ليس عدلاً!

قالت ليلي هذا شاكية لصديقتها هانا التي مرت عليها في الحانوت بعد انصرافها من المدرسة حيث تعطي دروساً في التاريخ.

ـ كان من المفروض أن يحدث شيء آخر يشغل الناس عني.

ـ ولكن شيئاً لم يحدث، وجاء سوء حظك من السماء ليتسلى به الناس، ولا يمكنك أن تلوميهم، لأن مدينة «إدجيرتن» لم تشهد عرساً مثل عرسك. وعليك أن تعترفي بأن رونان مختلف عن رجال المنطقة.

ـ هذا صحيح.

وتنهدت ليلي باكتئاب وهي تتذكر شعورها حين وقعت لأول مرة عيناها على قامته الطويلة، وتقاطيع وجهه الرائعة، وعينيه الزرقاوين الفولاذيتين وشعره القاتم اللامع.

ـ وبما أنك تعملين في ميدان تصميم الأزهار..

ـ ما هذه المبالغة!

ردت عليها ليلي ساخرة.. ربما بشكل أقوى مما كانت تقصد إذ حاولت أن تصرف ذهنها عن المجرى المؤلم الذي أخذته.

سألتها هانا مؤنبة: «وكم عدد النساء في هذه المدينة اللاتي دخلن دنيا الأعمال، واكتسبن في مدة ست سنوات شهرة أحسن منسقات للأزهار.. آسفة، بل مصممات أزهار، في المنطقة؟».

أخذت ليلي تتذكر بتعاسة. إنها تعرفت على رونان من خلال عملها. فقد طلب منها تنسيق الأزهار لعرس الابنة الوحيدة لأحد الصناعيين الأثرياء. وبصفته شريك «فرانك هودغسن» في العمل كان رونان من بين المدعوين. وبعد أن عرّفتهما والدة العروس على بعضهما البعض دعاها إلى الرقص.

ـ كنت محظوظة لا غير.

فشخرت صديقتها ساخرة: «محظوظة؟ ليس للحظ علاقة بهذا يا ليلي، إنها الموهبة والعزيمة والعمل الشاق. فعلى الرغم من فجيعتك بوالديك، وأنت في سن المراهقة شقيت طريقك لتصلي إلى النجاح، كما أنك ربيت ديفي أحسن تربية، وإن كان هناك من يستحق بعض السعادة، فهو أنت.. وكنت أظنك وجدت ذلك مع رونان».

وتغيّرت ملامح هانا، واستحال وجهها الباسم بطبيعته قاسياً عدائياً:

ـ ليتني أستطيع الإمساك به...

فردت ليلي عليها بسرعة: «هانا.. أرجوك».

ـ قد تحدثنا عن قصة رونان مرات ومرات، ولم نصل مع ذلك إلى نتيجة.

في الأسابيع القليلة الماضية، تعلمت ليلي أن تتكيّف مع ما حصل لها، فالجراح التي سببها رونان لها كانت أكثر عمقاً وتعذيباً من أن تلتئم. ولكنها شغلت نفسها في عملها لتصرف ذهنها عن آلامها.

ـ لا أريد أن أتحدث عن الموضوع، حتى أنني لا أريد التفكير..

ولحسن الحظ، قاطعهما في تلك اللحظة طرق على الباب، ثم أطلت «هيثر» مساعدتها قائلة: «ثمة زائر لك، يا ليلي، يقول إن الأمر شخصي».

وقفز قلب ليلي من مكانه.

أيعقل ذلك؟ لم تعرف ما إذا كانت راجية ام خائفة.. ما الذي قد

يساورها من مشاعر إن كان رونان؟ ما الذي ستقوله له؟ وبينما كانت تجاهد لاستجماع شيء من ضبط النفس، صدمت وقد بدا زائرها على عتبة الباب.

لم يكن رونان.. كان شعر الزائر مشوباً بلون فضي وقد انسدل على كتفيه بشكل عشوائي غير منتظم أما عيناه فهما بنيتان داكنتان. بدت وجنتاه بارزتي العظام، فانقبض قلبها حزناً عليه.

ـ ديفي!

كان آخر شخص توقعت أن تراه. وعبر صوتها عن مدى افتقادها له خلال الثلاث سنوات الماضية.

شعر ديفي بذلك، فالتوى فمه وهو يقف بارتباك امامها.

ـ مرحباً يا أختاه، هل دهشت لرؤيتي؟

كانت لهجته تنطوي على شيء من الغرور الممزوج بالتمرد.

ـ أدهشني.. أواه، يا ديفي!

نهضت واقفة، واندفعت إليه مفتوحة الذراعين لتحتضنه مرحبة. ولم تستطع أن تمنع نفسها من الارتجاف وهي تشعر بنحول جسده الرقيق.

مهما كان العمل الذي قام به ديفي، إلا أنه بدا واضحاً أنه لم يحرز النجاح الذي حلم به.. وقد خيل إليها أنه لم يذق الطعام منذ فترة طويلة.

ـ لقد غبت فترة طويلة، أين كنت؟ اشتقت إليك كثيراً.

ـ وأنا أيضاً اشتقت إليك.

ـ حان الوقت لتعود، يا فتى. كادت أختك تجن قلقاً عليك، أما كان ينبغي عليك أن تتصل بها من وقت لآخر لتخبرها بمكانك؟

ـ كنت... مشغولاً جداً. والوقت يمرّ سريعاً.

ـ كم يستغرق الاتصال التليفوني من الوقت؟

فقالت ليلي بسرعة: «هانا، إنه هنا الآن، وهذا هو المهم، هل ستبقى، يا ديفي؟».

ـ إن كان ذلك ممكناً.

وفجأة، نظر إليها مباشرة وقد ضاقت عيناه وقال: «سمعت أنك كنت

تبحثين عني، هل من مشكلة؟».

ـ مشكلة؟

لم يمنع عبوس ليلي هانا من الكلام: «هذا أقل ما يقال بشأن ما حصل».

ولأول مرة، بدا الاهتمام على وجه ديفي: «ماذا...؟».

فقالت ليلي بسرعة وهي تراه أشبه بحصان على وشك الجموح: «كنت أبحث عنك لأنني أردتك أن تحضر زفافي».

آلمها كثيراً أن تقول ذلك.. فكل كلمة كانت أشبه بطعنة سكين في قلبها المحطم. وتابعت قائلة: «ولكن من حسن الحظ أنك لم تحضر لأن الأمور لم تتم بالشكل الذي كنت أريده».

قالت هانا ساخطة: «آه، لو أستطيع أن أضع يدي على رونان غيرين».

ـ رونان غيرين!

جفل ديفي وكأنه لمس لتوّه سلكاً كهربائياً.

ـ هل وقعت في براثن رونان غيرين؟

ـ وهل تعرفه؟

أرغمت ليلي نفسها على النطق بهذه الكلمات إزاء الذعر الذي تملك ديفي.

ـ ومن لا يعرف رونان غيرين؟ فهو يملك عقارات لا تحصى، ويفتش دوماً عن الأعمال المتداعية فيشتريها رخيصة ثم يحوّلها إلى أعمال ناجحة.. فإذا شملك باهتمامه، فأنت...

وسكت يحاول أن يعثر بالضبط على الكلمات المناسبة، مما أثار توتر ليلي.. فأرغمت نفسها على سؤاله: «ماذا حدث، يا ديفي؟».

ـ غيرين يلاحقني. أنا..

ونظر إلى هانا التي فهمت الإشارة: «حان وقت انصرافي، إلى اللقاء ليلي».

ولم تكد ليلي تلحظ خروجها، إذ كان اهتمامها مركزاً على وجه ديفي

الشاحب.. فتقدم وجثم على حافة المكتب، وأخذ يهز ساقه متوتراً..

ـ ماذا حدث؟

فقال وعيناه تتجنبان عينيها: «كنت أعمل ساقياً في ناد ليلي وذات ليلة، لم يأت المغني، فغنيت مكانه. وحدث أن رونان كان موجوداً تلك الليلة فسمعني أغني، وأخبرني لاحقاً عن مدى استمتاعه بأدائي وسألني إن كنت أنوي امتهان الغناء. وعندما قلت له إن ذلك هو حلمي، قال إنه قد يساعدني لكنه يريد أن يتأكد أولاً من أنه لن يضيع وقته سدىً. وعاد في الليلة التالية مع مساعد له في العمل.. وهو صاحب محل تسجيل.. وأخذ يتحدث معي عن عقد للتسجيل».

ـ هذا رائع!

ولكن الكلمات تلاشت على لسان ليلي عندما رفع ديفي رأسه ورمقها بنظرة مظلمة.

ـ أتظنين ذلك؟ هذا ما اعتقدته حينذاك. شعرت بنفسي أطير فوق السحاب.

ورفع كتفيه النحيلتين نابذاً تلك الأفكار الحمقاء الساذجة.

ـ ولكن سعادتي لم تدم.

ـ ما الذي أفسد الأمور؟

أبعد ديفي خصلات شعره المتهدل عن وجهه بيد مرتجفة، وتنهد بعمق. ثم حوّل عينيه عن الاهتمام البادي في عينيها: «أنا من تغير وأفسد تلك الفرصة الكبرى».

ـ أخبرني يا ديفي.

ـ اسمعي يا ليلي، لم تكن هذه أول فرصة لي في مجال تسجيل الاسطوانات. عندما وصلت في البداية إلى لندن، قابلت رجلاً، ووقعت معه عقداً. ولكنه كان يأخذ الأرباح كلها. ولم يمض وقت طويل حتى أدركت أنهم كانوا يعتبرونني أبله ساذجاً. لكن الأوان كان قد فات، وأدركت أنهم تملكوني لبقية حياتي، فخطر لي أن أهرب.. وبالفعل نقضت العقد، وتركت كل

شيء، حتى أنني غيرت اسمي وانتهى بي الأمر بالعمل كساقٍ.

ولوى فمه بضحكة ساخرة: «إلا أنه لم يعد بوسعي عقد أي اتفاقيات أخرى، ولكن أدهشني رونان غيرين عندما عرض عليّ أن يخلصني من العقد القديم مقابل مبلغ من المال يدفعه للطرف الآخر.. إنما بثمن».

عندما سمع صرخة ليلي الذاهلة، أومأ لاوياً شفتيه: «نعم.. لقد ذهلت مثلك تماماً.. لكن شريكه أوضح أن مهنتي في الغناء تصلح للاستثمار، وجل ما يهم غيرين هو.. المال وليس الموسيقى. فكنت بالنسبة إليه مشروع عمل فاشل يريد إحياءه».

وبدت لها لمحة من ديڤي القديم عندما رفع رأسه ومنحها ابتسامة صغيرة متغطرسة.

ـ كان يؤمن، استناداً إلى مرجع خبير، أنني مغنٍ جيد. ولكنه أصر على توقيع عقود قانونية لا يمكن دحضها.. أواه، يا أختي، ليتك تعرفين مدى النجاح الذي لقيته بعد ذلك..

ـ ولكنني لم أسمع عنك شيئاً.

ـ آه، لم أكن قد بلغت الذروة بعد، إذ كان عليّ أن أبدأ أولاً في اكتساب بعض الشهرة في النوادي في جنوب البلاد. ولكنني.. فقدت صوابي قليلاً.. فصعدت مرة إلى المسرح ثملاً.. فثار غضب رونان، لأنه أنفق عليّ مالاً كثيراً. ومما زاد الطين بلة أنني حطمت السيارة وأصبح المحرك طعمة للنار. ومع أنني كنت قد وعدته بأن أسجلها في شركة تأمين، لم أقم بذلك.

ـ آه، يا ديڤي.

ـ أعلم هذا.

وعبس للهجة التوبيخ في صوتها وتابع وهو يتجنب نظراتها.

ـ أعلم أنني كنت معتوهاً تماماً، ولكن رونان أوثقني بتلك العقود القانونية، فلجأت إلى الطريقة السابقة.. وهربت، وتخلصت من كل شيء. إلا أني، قانونياً، محكومٌ بالعقد الذي بيني وبين رونان غيرين وهو يلاحقني الآن بتهمة نقض الاتفاقية.. كما أنه أقام عليّ دعوى للمطالبة بفوائد

القرض الذي منحني إياه بنسبة فاحشة.. إنه يعلم جيداً أنني لا أستطيع تسديد ديونه، ومع ذلك لم يكف عن ملاحقتي، بطلب دمي.

ارتجفت ليلي وهي تفكر في حقد رونان الذي لا يعرف الصفح.. ولو أنها لم تختبر ذلك بنفسها، لظنت أن ديڤي يبالغ في كلامه.. لكن ذكرى قسوته في إنهاء زواجهما، لم يدع لها مجالاً للشك في كلام ديڤي.

ـ كان يتوقع أن يجني من ورائي ثروة كبيرة، فإذا بي أجعله يخسر الكثير من المال.. لقد خذلته فصمم على أن يجعلني أدفع ثمن ذلك.

فقالت بلهفة: «ولكن، لو تحدثت معه، واعتذرت إليه، لاصطلحت الأمور. لقد آمن بموهبتك وإن قلت له بأنك كنت أحمق وأنك من الآن فصاعداً ستجّد في العمل وتعيد إليه كل فلس دفعه.. ألن يصغي إليك؟».

كان في ارتعاش ملامح ديڤي جوابٌ كافٍ. واستحال وجهه الشاحب إلى وجه رمادي اللون لمجرد التفكير في قولها هذا.

ـ الأمر أكبر من ذلك بكثير، يا ليلي.. لن يمكنني أبداً تعويض ما فقده، وأنا لا أجرؤ على مواجهته. إنه يريد الانتقام ولا يرضيه غير ذلك.

الانتقام، وبعثت هذه الكلمة مذاقاً كريهاً لاذعاً في فمها جعلها تشعر بالغثيان. هل كان تودد رونان إليها مجرد جزء من انتقامه من أخيها؟ وهل مهزلة زواجهما مناورة ليستغل مشاعرها في سبيل النهاية القاسية؟

أكان ذلك كله لأجل (المال) فقط؟ وهل دوافع رونان وضيعة إلى حد القيام بكل هذه الأمور. رغم أن المبلغ الذي يدين غيرين له كبير، إلا أنها لم تصدق أن رونان قد ينحط إلى هذا المستوى.

تذكر ديڤي أخيراً، السبب الذي دفعهما إلى هذا الحديث، فسألها:

ـ ولكن ما قصتكما، أنت ورونان غيرين؟ قالت صديقتك...

ـ آه، لا تهتم بكلام هانا.

قاطعته بسرعة إذ يكفي ما لديه من هموم..

ـ لا تفكر في الموضوع.

بعد أن رأت الارتياح على وجهه، وقد استرخى في مقعده، سرها أن

تخفي عنه الحقيقة مع ما في ذلك من ضغط على أعصابها. وقال فجأة: «ما أجمل أن أراك مرة أخرى، يا ليلي! لم أعرف مكاناً آخر أذهب إليه. لكنني كنت أعلم أنك سترحبين بي وتعتنين بي كما فعلت دوماً. هل يمكنني البقاء معك فترة، يا ليلي؟».

انقبض قلبها بمزيج من المرارة والحلاوة، السرور والتوتر، الخوف والتوجس.. منذ مدة طويلة وهي تحلم بعودة ديفي إلى البيت مردداً لها هذه الكلمات.. كانت أحياناً تخشى ألا يعود قط.. لكنه الآن هنا.. معها. وحده التفكير في رونان وتأثيره المهلك عليها وعلى أخيها، ألقى ظلالاً سوداء على سعادتها.

- أرجوك يا أختي.

وإذ أدركت فجأة أنها عابسة، وأنه فسّر عبوسها هذا بكرهها لعودته إلى حياتها.. وهذا آخر ما تريده، قالت بابتسامة مرغمة: «يمكنك أن تبقى قدر ما تشاء، يا عزيزي».

وجاهدت في نبذ رونان عن ذهنها، لأنها لا تريده أن يفسد سعادتها بعودة ديفي.

- سأحضر معطفي ونذهب معاً، سأخرج اليوم باكراً وأدع الموظفين يغلقون المحل.. هيا بنا إلى البيت!

***

٤ - أحميك من نفسي

- هيا بنا إلى البيت.

أخذت ليلي تقتلع الأعشاب الطفيلية بعنف لا مبرّر له وتلك الكلمة التي قالتها لـ(ديفي) تتردد في ذهنها بعد ذلك بيومين.

لم يكن هذا بيتها.. ومع أنه أصبح ملكها قانونياً بعد أن أرسل لها رونان الأوراق التي تثبت ذلك، لا يمكنها أن تعتبره بيتها بأي شكل من الأشكال.

ولو كان لها الخيار، لما رضيت بالبقاء هنا.. فالمكان حافل بالذكريات المرة.. وكل ركن فيه يذكرها بتلك الساعات القليلة التي أمضتها مع رونان..

كانت عاجزة عن نسيان كل لحظة في تلك الليلة التي أمضياها هناك، في غرفة الجلوس أو في المطبخ الفسيح يتناولان الطعام..

لكنها بعد زواجها تخلت عن شقتها الصغيرة في المدينة، ولم يعد لديها مكان آخر تذهب إليه. فإما أن تبقى في هذا البيت، أو تمكث مع هانا.

لم يكن لدى ديفي أدنى فكرة عن الموضوع. فقد اعتقد أن البيت ملك لها، وقد أعجب جداً بحجمه وأناقته عندما أحضرته إليه للمرة الأولى. وصرخ هاتفاً: «ما هذا، يا أختاه؟ يا له من منزل. لم أظن قط أن بيع الزهور مربح إلى هذا الحد».

فقالت بشيء من الحدة: «هذا ليس من بيع الزهور. صحيح أن الحانوت أفضل من تلك المنصة في السوق ولكنه مستأجر، لم أبدأ بكسب

www.elromancia.com

الأرباح إلا بعد أن دفعت النفقات والأجور كافة.. ولو أنني لم أبرع في ميدان تنسيق الأزهار لأفلست..».

ـ هل تجنين ما يكفي لتسديد دين رونان غيرين؟

سألها هذا متردداً، متوقعاً منها أن تهز رأسها نفياً، ولكنها أجابته مشجعة: «سنحاول ذلك، أنا واثقة من أنه سيقبل أن ندفع له المبلغ على أقساط».

ـ أظن أن الأوان قد فات!

ـ لم يفت شيء بعد.

بقيت هذه الكلمات تتردد في ذهنها وكأنها تعنفها، فتمنّت لو أنها لم تقلها. فكيف لها أن تخبر ديفي أن الوقت قد فات حقاً، وأن رونان بدأ بتنفيذ خطته الانتقامية. ما الذي سيشعر به إن علم بأن عدوّه مصمم على أن يسترجع منه أكثر مما يدين له من مال؟.

ـ أظنك اقتلعت كل الأعشاب الطفيلية.. إلا إن كنت، تنوين متابعة الحفر حتى تصلي إلى أستراليا.. أو لعلك تتمنين أن تحفري قبري.

كان هذا آخر صوت (تريد) سماعه. أو على الأقل هذا ما حدثها به عقلها. ولكن كل هذه الأفكار المنطقية لم تمنع قلبها من أن يثب من موضعه، وأن تتحول خفقات قلبها إلى رعد وأن يدور رأسها مسبباً لها الغثيان والسبب سماعها ذلك الصوت المألوف خلفها.

لا يا إلهي، لا تجعل هذا حقيقياً.. أرجوك يا إلهي ليته مجرد وهم.. ليتها مجرد تصورات وليدة الخوف، من أن يعود رونان ويجد أن ديفي عاد إلى «إدجيرتن؟».

لكنها كانت كالغريق الذي يتشبث بقشة، وهو يعرف ذلك جيداً. كيف لها أن تخطيء ذلك الصوت العميق المثقل بالسخرية والهزل؟

أخذت نفساً عميقاً وعيناها مسمرتان على حوض الزهور أمامها، وقد أدركت أن رونان محق إذ اقتلعت الأعشاب الطفيلية كلها، وأوشكت أن تقتلع الأزهار نفسها، أيضاً.. فتركيز ذهنها على أمر تافه كهذا ألهاها عن

التفكير بالألم الذي كان يترصدها، لحظة تستدير فيها لتواجه الرجل الواقف خلفها.

ـ مرحباً يا رونان.

قالت ذلك بحذر وبصوت خالٍ من المشاعر. كان الوحل يغطي يديها فأخذت تمسحهما ببنطلونها الجينز.

ـ لم أكن أتوقع رؤيتك مرة أخرى. ما الذي جاء بك إلى «يوركشاير؟».

ـ الأعمال، وأمور أخرى.

بدا عليه الارتباك وكأنما ردة فعلها لمجيئه خذلته.. فارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة لهذه الفكرة.. إن كان يتوقع منها الصراخ والصياح، أو الانفجار في بكاء هستيري لمرآه، فسيصاب بخيبة أمل مرّة.. لقد حاولت ذلك في صبيحة زفافهما ولم تنجح.

ـ الأعمال؟

ـ ثمة عقارات معروضة للبيع في «ليدز»، فجئت لرؤيتها.

كان رونان يعلم في قرارة نفسه أن هذا جزء من الحقيقة. إذ كان بإمكانه، أن يزور «ليدز» ليوم واحد، أو أن يرسل أحد موظفيه لينوب عنه.

انتظر عدة أسابيع حتى وجد عذراً كهذا ليأتي إلى الشمال. فمنذ أن ترك مدينة «إجيرتن» ونفض غبار هذا البلد عن حذائه، أدرك أن من الصعب عليه التخلي عن زوجته ليلي غيرين.

فمن ذلك الحين وهي تشغل باله. ولم يكن لذلك تفسير فوجهها يتراءى له كل صباح من خلف عينيه المغمضتين. وصورتها لا تفارق خياله، ومهما حاول التفكير في شيء آخر تبقى في ذهنه.

والأسوأ من ذلك أنها أيضاً آخر ما يأتي إلى ذهنه قبل النوم ليلياً إذ تنسلّ إلى أفكاره وتوقظ فيه جوعاً يطرد النوم عن عينيه ويتململ ساعات في فراشه. وعندما يستسلم أخيراً إلى نوم خفيف، تراوده أحلام تجعله يستيقظ لاهثاً شوقاً إليها بينما قلبه يخفق بين ضلوعه وأعصابه تحترق..

لم يستطع أن يبعدها عن ذهنه.. حتى أرغم نفسه في نهاية المطاف على

الاعتراف بحاجته لرؤيتها ولو لمرة واحدة. ربما يتمكن عند ذلك من إقناع نفسه بأنها لا تختلف عن سواها، وأن أحلامه جعلت منها، في ذهنه، أسطورة رائعة لا تمت للمرأة الحقيقية بصلة.

كم حاول أن يقاوم تلك الفكرة، كارهاً أن يرى نفسه، هو الرجل العقلاني، قد أصبح أسير رغباته. لكنه، أدرك أخيراً، أن ليس أمامه سوى الاستسلام.

وعاد يقول لها: «خطر لي أنها فرصة ملائمة لأزور فيها زوجتي العزيزة وأسألها عن أحوالها».

أرغمت ليلي نفسها على ألا تجفل إزاء تهكمه الأسود بقوله (زوجتي العزيزة)، واستدارت ببطء لتواجهه، وقد سمّرت عينيها على بقعة ما خلف كتفه اليمنى متجاهلة النظر إليه.. فهي ما زالت عاجزة عن مواجهة نظراته..

قالت أخيراً بلهجة رسمية: «حسبتك ترفض أن تراني مرة أخرى».

فأجابها بخشونة: «كنت أفضل ألا أراك ثانية أبداً لولا أنني أريد الآن أمراً مختلفاً تماماً».

كان كلامه مبهماً فلم تفهم ما يعنيه. فلو فسرته على طريقتها، لما كان يتناسب مع سلوك رونان، ومع كل ما علمته من صفاته منذ اللحظة التي وضع فيها خاتم الزواج في إصبعها.

- حسناً، إنني بخير كما ترى.. ويمكنك الآن العودة إلى سيارتك ومتابعة طريقك.

ما الذي ستشعر به إن فعل ذلك؟ حاولت أن توهم نفسها بأن هذا ما تريده، متمنية لو أنه لم يأت قط، إذ لوّث وجوده جوّ بيتها.. ولكنها، في أعماقها، كانت تعلم أن هذا غير صحيح..

وجدت نفسها ضحية معركة متوحشة لإخفاء مبلغ تأثيره عليها.. وكيف لها ذلك وكيانها متعطش لرؤيته وسماع صوته، حتى أنها كانت تتحرق شوقاً إليه خلال تلك الأسابيع التي غاب فيها عنها؟ فما إن وقعت

عيناها عليه حتى أدركت كم كانت حياتها فارغة من دونه.

ليس عدلاً أن يتمتع بهذه الجاذبية المهلكة، فعيناه الزرقاوان الفضيتان الفولاذيتان، وقامته الطويلة القوية، وشعره اللامع الرائع، كل هذا أثار فيها مشاعر أشبه ببركان متفجر.

وكان يفيض بملابسه العادية التي كانت عبارة عن بذلة كحلية فضفاضة إيطالية الطراز وقميص رياضي، رجولة وجاذبية مدمرة.. فلم يكن أمام ليلي سوى الاعتراف بأن كراهيتها له لم تمنحها المناعة الكافية ضدّ تلك الجاذبية.

وبالرغم من أنه أمضى ساعات طويلة خلف عجلة القيادة بقيت ملابسه أنيقة، وشعرت بنفسها رثة الملابس أمامها، ببنطلونها الجينز الكالح اللون وقميصها الأزرق المقفل المنقوش بأزهار باهتة اللون.

وازداد ذلك الشعور سوءاً وقد وقف رونان عاقداً ذراعيه فوق صدره، مخضعاً إياها لفحص شامل من قمة رأسها إلى حذائها الملطخ بالوحل.

ثم قال لها: «لقد لطخت خدك بالوحل».

كانت السخرية في صوت رونان أكثر مما يمكنها احتماله وازداد الغليان في أفكارها وهو يتقدم خطوة نحوها ماداً يده إليها.

- لا!

وأجفلت مرتدة بحدة إلى الخلف بحركة غريزية، وقد مدّت يديها إلى الأمام بشكل دفاعي.. فإن تركته يلمسها، فستتناثر حطاماً أشبه بشظايا كأس بلورية.

- أردت فقط أن أقدم لك هذه.

قال هذه الكلمات الباردة المقتضبة محاولاً أن يخمد بها نيران غضبه، بينما أصبح المنديل الأبيض الذي كان يحمله في يده، على وجهها فعلاً.

- لا حاجة لأن تجفلي وكأن حية سامة تريد أن تلدغك.. ما كنت لأؤذيك أبداً.

ربما ليس جسدياً.. إذ رغم قوته البالغة وقامته الفارعة، لم تشعر قط

بخوف في حضوره، كما لم تتصوره يوماً قادراً على إيذاء شخص أضعف منه.. وحده التأثير العاطفي الذي يتركه عليها يخيفها.

ـ حسناً، ألن تقدمي شراباً لزوجك؟

أرادت أن تقول له: «مستحيل!».

أرادت أن تخرجه من هنا نهائياً قبل أن يعود ديفي، ولكنها لم تشأ أن يستنتج رونان أن ثمة ما تريد أن تخفيه عنه إن أبدت اللهفة للخلاص منه.

كان ديفي قد قصد المدينة عصر هذا اليوم في سيارتها بعد أن أخبرها بألا تتوقع عودته قبل وقت الشاي، وحسب خبرتها به، لن يعود قبل السابعة.

ـ أرغب بفنجان قهوة، فقد أمضيت ساعات طويلة على الطريق.

ـ فنجان قهوة..

تمتمت هذه الكلمات وهي تتبعه صاعدة الدرجات متوجهة إلى المطبخ.

لم تهتم بما إذا كانت تبدو قاسية القلب، فهذا ما تشعر به في الواقع، عليها أن تقاوم إصرار ذهنها على أن تتناسب خطواتها مع خطواته أثناء السير. فقد كان من المستحيل ألا تتذكر، بألم، آخر مرة سارا فيها جنباً إلى جنب في ممر الكنيسة بعد انتهاء عقد مهزلة زواجهما الأسود.

ـ أعترف بأنني لم أتخيلك تحسنين العمل في البستان.

أذهلتها لهجته المسترخية للغاية.. كيف يمكنه أن يتصرف على هذا النحو؟ كيف يمكنه أن يثرثر معها وكأنهما مجرد صديقين؟ أو شخصين لم يتقابلا أكثر من مرة واحدة من قبل؟

ألا يشعر مثلها بغصة في قلبه لمجرد رؤيتها؟ ألا يعي ذلك الصراع الذي يمزقها بين الكراهية المحرقة له التي تجعلها تتمناه بعيداً عنها مليون ميلاً، وبين الحنين والشوق اللذين يجعلانها تريده هنا بجانبها إلى الأبد؟

ـ لا أتصورك تلوثين تلك الأصابع الطويلة الرقيقة في الوحل.

حثها كلامه على النظر إلى يديها، فلمح خاتم الزواج الذهبي تحت أشعة الشمس مثيراً في نفسها شعوراً كريهاً وكأن سكيناً مرهفة أغمدت في قلبها.

ـ كما أنني لم أرك قط..

فقاطعته بحدة: «إنك لم ترني على الإطلاق وإلا لما..».

وتوقفت عن الكلام، وهي تصر أسنانها حتى لا تنفجر في وجهه.. فمهما كانت رغبتها قوية في أن تصيح وتقذف آلامها ولومها في وجه ذلك المتعجرف الاسود الشعر ذي الوجه البارد الجامد فلن تفعل ذلك. لأنها لم تشأ أن يستمتع بالشماتة بها لما أحدثه انتقامه الوحشي ذاك.

لكن رونان لم يكن مستعداً ليتجاوز ما كانت ستقوله، فسألها بسرعة:

ـ أتعنين أنني لما كنت تزوجتك؟

فأجابت بسرعة: «عنيت أنك ما كنت لتدهش عند رؤيتي أعمل في الحديقة.. لو عرفتني بشكل كاف لعلمت أن أبي كان يملك بستاناً صغيراً، وقد ورثت عنه الاهتمام بالعمل في البستان».

بذلت جهدها لتغير مجرى الحديث حتى تتجنب تكرار الحديث عما حدث بينهما، فقد أرادت أن تسايره في ثرثرته العفوية، من دون الإفصاح عن شعورها الحقيقي.

ـ إنني أعشق تنمية الأزهار والشجيرات، وتمهيد التربة والزراعة والسقي والتشذيب إن اقتضى الأمر. وأظن أن المتعة التي يمنحها هذا العمل أشبه بالمتعة التي تشعر بها الأم عند رعاية الطفل.

ـ وهل سترعين الطفل بهذه الطريقة؟ عندما تصبحين أماً، هل...؟

ـ آه، لا.. لا يمكنك أبداً أن تتمكن من السيطرة على الطفل بالطريقة نفسها.

كشف ردها العنيف هذا عن مبلغ الضيق التي تشعر به.

ـ كل ما يمكنك أن تفعله هو أن ترعاه وتمنحه حبك، ثم تدعه يذهب.. عليك أن تعلمه الفرق بين الخير والشر، وأن تطلق في النهاية سراحه ليشق طريقه في الحياة..

وعندما وصلا إلى المطبخ سألها: «وهل ستتمكنين من القيام بذلك؟ ماذا لو أحسست بأنه لم يتعلم الفرق بين الخير والشر، كما كنت ترجين؟».

وبدت نبرة غريبة في صوته وهو يتابع: «إن كان الأب، مثلاً...».

واستدارت ليلي بينما كانت تملأ إبريق الشاي ماءً وهي تقول: «ما هذا يا رونان؟ أتحاول أن تعرف ما إذا تركتني حاملاً عندما هجرتني؟ حسناً، لا داعي للقلق، فلم تثمر تلك الليلة عن أي نتائج غير مرغوب فيها، وإن لم تخني ذاكرتي فقد حرصت على ألا يحصل ذلك، وقد أعربت عن رغبتك بعبارات مختلفة كلياً».

ـ أردت أن أحميك وأحمي نفسي.

قال ذلك بحدة أثارت في قلب ليلي شعوراً بالانتصار لأنها رأت تلك الملامح الهادئة الواثقة قد تبدلت.. ولعل التفكير في أن كلماتها أصابته في الصميم، هوّن بعض الشيء من آلام ذكرياتها. وسألته: «وما الذي كنت تحميني منه بالضبط؟».

ولكنها ندمت على طرحها هذا السؤال.. لم تكن تريد أن تعرف الجواب، أو أن تسمع منه أنه لم يكن يرغب فيها على الإطلاق..

وتابعت تقول: «أذكر أنني قلت لك إنه لا داعي للوقاية؟ فقد حسبت أنني تزوجت الرجل الذي أحببته وأحبني».

فسألها بحدة: «وماذا لو تركتك حاملاً وأصبحت أنا أباً لطفل لا نريده، نحن الإثنين؟».

هذا غير صحيح!

صرخ صوت ضئيل في أعماق ليلي.. فبالرغم من كل شيء كانت تتمنى إنجاب طفل منه.

لكن الاعتراف بذلك له سيكون قمة الحماقة، إذ سيدرك مدى عمق مشاعرها نحوه، ومبلغ الدمار الذي ألحقه بها عندما هجرها.

ولكنها عادت، لتتساءل عما إذا كان هذا صحيحاً. فقد دمّرت قسوة رونان البالغة مشاعرها نحوه، وحولت حبّها له إلى حطام وسببت لها جروحاً لن تلتئم طوال حياتها.

ـ لماذا لم تستمرّ بالأمر إذن إلى النهاية؟ هل فقدت السيطرة على أعصابك؟

فقطب رونان بارتباك: «فقدت السيطرة على أعصابي؟».

ـ لو تركتني حاملاً لاكتمل انتقامك من ديفي، أليس كذلك؟ فتتركني حينها مرتبطة بمن يذكرني بك بقية حياتي.. لماذا لم تفعل هذا؟ هل أردت أن تثبت لي أن في قلبك رحمة؟ هل تدعي بأن لجنون الانتقام حدوداً؟

ـ صدقي أو لا تصدقي، فهذه هي الحقيقة.

بدا لها وكأن الكلمات تخرج من بين شفتيه مجرورة بكماشة حارة متجمرة، بينما عيناه الفولاذيتان كانتا تنضحان بمشاعر لم تستطع أن تفسرها. لكن تعابير وجهه دفعتها إلى القول بطيش: «على كل حال، إن لم ترغب المرأة بأن تتم شهور الحمل يمكنها أن تتخلص من.. هديتك الصغيرة التي قد تركتها لي».

دفعت هذه الكلمات رونان إلى التأمل ملياً، فإن لم يكن حذراً، فسيجد نفسه يعطف عليها وينقاد في طريق خطرة. ولكن، ما إن بدأ يتساءل عما إذا كان قد أخطأ بحقها حتى نطقت بهذه الكلمات كبرهان على أنها أخت ديفي تماماً.

وسألها من دون أن يزعج نفسه بإخفاء الاشمئزاز من صوته: «هل كنت ستفعلين ذلك؟ هل كنت...».

طبعاً ما كانت لتفكر قط في ذلك، لكنه ظن أنها قد تفعل.. وكان في الصدمة التي بدت على وجهه ما جعلها تشعر بالارتياح.

ـ لحسن حظك أن هذا السؤال لم يعد ضرورياً. وأظن أن الفضل يعود لك..

ـ لست..

كان على وشك إضافة شيء آخر، لكن ليلي لم تترك له فرصة لذلك، إذ ملأت فنجاناً من القهوة ووضعته أمامه بعنف على المائدة قائلة: «القهوة التي طلبتها يا سيدي! وسأكون شاكرة...».

وتعمدت أن تجعل لهجتها لاذعة وهي تكمل: «.. إن شربت قهوتك بسرعة وذهبت في الحال».

تجاهل فنجان القهوة، وأمسك بيدها يرفعها: «أما زلت تلبسين خاتم زواجك؟».

- ولمَ لا؟

وانتزعت يدها منه وكأن ناراً لسعتها، وأضافت: «ما زلت زوجتك في نظر القانون على الأقل!».

فقال يذكرها بصراحة قاسية: «القانون فقط. ولكن من السهل التخلص من ذلك كما هي الحال بالنسبة إلى طفل غير مرغوب فيه».

وتلقى شهقة الصدمة التي صدرت عنها بابتسامة صغيرة متجهمة ورفع فنجان القهوة، وعيناه تراقبانها بإمعان من فوق حافة الفنجان.

- هل من أخبار عن ديفي؟

أفقدها تغيير الموضوع اتزانها وساورها الشك في تعمده نطق كلماته بهذا الشكل. وقالت متوترة: «د.. ديفي؟ لا، لا شيء. إنه..».

ولكن للحظة قصيرة، اتجهت عيناها نحو الباب من دون أن تتمكن من السيطرة عليهما، ففضحت سرها. عندها، وضع رونان فنجان القهوة على المائدة بعنف، فاندلق السائل البني الساخن في كل اتجاه.

- إنه هنا، أليس كذلك؟

والتهبت عيناها الذهبيتان المصعوقتان وهو يضيف: «أخوك المجرم هنا، أين يختبىء؟ في الطابق الأعلى؟».

* * *

٥ ـ جاذبيّة لا تقاوم

- كلا..!

صرخت في وجهه يائسة، ولكن بعد فوات الأوان، لأن رونان تركها وسار نحو الردهة، ليصعد السلالم بلمح البرق، ويصل إلى الفسحة قبل أن تلحق به ليلي. ثم وقف يفكر أي باب يفتح:

- كورنويل..

وبوحي من غريزته، توجه مباشرة إلى غرفة ديفي، ورفس الباب برجله على طريقة الأفلام البوليسية.

- كورنويل! في..!

شعرت ليلي بالغثيان أمام الغضب الأسود في ثورته الهوجاء. وكادت ساقاها تتهاويان تحتها، ولكنها تمالكت نفسها وهي تقف بجانب رونان قائلة: «كان هنا».

ما الفائدة من الإنكار؟ فالأدلة دامغة، ولا مجال لإنكارها.. أغطية السرير المعبّرة، وسراويل الجينز والقمصان الملقاة على الكرسي أو المتناثرة على الأرض بغير اكتراث. أما البرهان القاطع، فكانت قيثارة ديفي الحبيبة التي لا يفارقها أبداً.

- أين هو؟

بعث صوته الخافت المتوحش رعشة خوف في جسمها، وخيل إليها أن لهب الغضب في عينيه قد حولها إلى رماد.

أمسك بمعصميها بقبضة قاسية جعلتها تجفل مضطربة: «أين هو؟».

ـ لا.. لا أدري..

ـ لا تكذبي علي، أعلم أنه كان هنا، وهو في مكان ما قريب. فلو لم يكن ينوي العودة لما ترك قيثارته، فإما أن تخبريني وإما...

ـ لا!

أطلقت شهقة تمرد مرتجفة.. فقد رأت الكراهية، وشهوة الانتقام تحترق في عينيه فتملكها الرعب من أن يصب غضبه على أخيها. وشعرت وكأنها مخلوقة يائسة تلقي بجسمها الضعيف بين براثن سفاك متوحش لتبعده عن أخيها الأعزل.

ـ أنا لن..

وقبل أن تنهي كلامها سمعت ذلك الصوت الذي كانت تخشاه أكثر من أي شيء آخر.. وارتد رأس رونان إلى الخلف بعنف وهو يصغي مثلها إلى صوت سيارتها تتوقف خارج المنزل.

تسمرت ليلي مكانها من دون حراك، بينما توترت قامة رونان الفارعة بجانبها وهو يتأمل ديڤي من النافذة يصفق باب السيارة ثم يتوجه نحو البيت وهو يصفر دونما اكتراث.

ـ أواه، يا ديڤي!

وأغمضت ليلي عينيها بيأس وهي ترى أخاها يسير نحو المصيدة مبتهجاً، غير واعٍ إلى وجود السفاك المتعطش إلى سفك دمه.. ليت بإمكانها أن تفعل شيئاً يحذره!

ـ ليلي؟

دخل ديڤي إلى الردهة وتناهى صوته يصل إلى آذانهما.

ـ أين أنت؟

نظرت ليلي إلى عيني رونان بخوف وهي ترى فيهما وميض الانتصار وقد رأى فريسته على مقربة منه.. فهمس لها بحقد: «ناديه، دعيه يصعد إلى هنا».

تمنت ليلي لو تهز رأسها، رافضة الإذعان له. ولكنها وجدت نفسها

عاجزة عن الحراك، وعيناها تحدقان في عينيه الشرستين، كما يحدق حيوان صغير مذعور في وهج أضواء سيارة قادمة نحوه، وتكاد تدهسه.

ـ ناديه!

وزال فجأة الشلل الذي كان يلجم لسانها، فرفعت رأسها وهي تغص بريقها.. كانت مجازفة منها، ولكن ما باليد حيلة.

ـ ديڤي!

صاحت تناديه بنبرة أشبه بصرخة تحذير حادة ممزوجة بالرعب، ديـ...

وماتت الكلمة على شفتيها عندما ضغطت يد رونان على فمها لتسكتها بقسوة، بينما جذبها بيده الأخرى بعنف وأدارها لتواجه الباب بقوة.

ورغم ما تملكه من سرور متوحش لوجود فريسته بالقرب منه، بدا هادئاً مسيطراً على أعصابه تماماً.. لكن قلب ليلي كان يخفق بشدة بين ضلوعها رعباً وخوفاً.

ـ ليلي؟

كان ديڤي قد صعد الدرج ووصل إلى الفسحة أمام باب غرفة النوم مباشرة.. ولكن ليلي لم تشأ أن تدعه يدخل كالحمل البريء، الغافل عن الذئب المتربص له.

فاستجمعت ما تبقى لديها من قوة ورفست ساق رونان بقوة، ورمته شامتة متجهمة وهي تسمع أنين ألم عند اصطدام أصابع قدمها بكاحله: «تباً لك!».

وماتت الكلمات على شفتيه عندما انفتح الباب فجأة، ودخل أخوها الغرفة، ليقف مسمراً مكانه وهو يرى أسرها.

ـ غيرين!

صرخ ديڤي بصوت خشن أبح، وقد اتسعت عيناه ذعراً.

ـ حسناً، حسناً.. هوذا السيد كورنويل المراوغ.

شعرت ليلي برعشة وهي تسمع كلمات رونان الساخرة، والتزمت الصمت عاجزة عن الكلام. حاولت أن تظهر كربها في عينيها، متشوقة

للوقوف بجانب أخيها، ولكن ذراع رونان الملتفة أبقتها أسيرته.

قطع رونان الصمت الذي ساد الغرفة قائلاً: «إنني أبحث عنك منذ وقت طويل، وكان لا بد أن أصل إليك في النهاية».

ـ أنا..

في وقت من الأوقات راود الشك ليلي في مبالغة أخيها في خوفه من رونان وتهديده له، إلا أنها اعترفت الآن مرغمة بأن المسألة أبعد من ذلك بمليون مرة.

كانت ملامح ديڤي تنطق برعب لا مثيل له. فقد ازداد وجهه الشاحب شحوباً ليتحول أبيض بلون جلده. أما عيناه الواسعتان فبدتا قاتمتين من تأثير الصدمة.

انقبض قلبها عطفاً عليه، إذ بدا لها ضعيفاً وعاجزاً إلى حد يدعو إلى الرثاء.. وخيل إليها أن الزمن عاد نحو الوراء فجأة ليبعث مرة أخرى بتلك الأوقات المخيفة التي أعقبت موت والديهما. فقد كانت ردة فعل أخيها حينذاك مماثلة لردة فعله الحالية، إذ كان يثير قلقها بعدم اكتراثه بشيء، ورفضه الطعام وإصابته بالأرق.

منذ عودته إلى «إدجيرتن» وهو لا يأكل جيداً. والنوم يجافيه معظم الليالي. فقد كانت تسمعه يتقلب في سريره أو يذرع غرفته بتوتر.

وعندما كان يستسلم أخيراً للنوم، كانت تراوده الكوابيس المخيفة فيستيقظ صارخاً طالباً النجدة، وكأنما كل وحوش العالم تلاحقه وليس فقط هذا الوحش الشرير القاسي القلب الذي يواجهه الآن.

كانت ليلي تعرف جيداً التصورات التي تصحب تلك الليالي المزعجة، فهي تشبه تلك التي كانت تصحب لياليها هي أحياناً: طيف ألسنة النيران المتوحشة المندفعة من بيتهما، ورائحة الدخان الأسود الخانق، واللون القرمزي الذي أضاء سماء تلك الليلة.

وإذ كانت تعلم ما يعانيه، لم تستطع أن تسأله المزيد عن علاقته برونان، فتركته لحاله وهي ترجو أن يستعيد هدوءه وراحة باله فيزول توتر أعصابه

ويتعافى جسدياً.

وفي هذه المواجهة بالذات، كان ديڤي هو الطرف الأضعف، إذ من المستحيل مقارنة نحوله البالغ وشكله الهش الضعيف بذلك الجسم القوي الصلب الذي يثبتها إليه بعنف.

ـ ديڤي..

هتفت صارخة وقد تمكنت من أن تتخلص من قبضة رونان لتندفع نحو أخيها تأخذه بين ذراعيها، محاولة أن تخفف عنه وتطمئنه. لكن ردة فعل ديڤي حيال تصرفها كان عكس ما توقعت.

فقد رفع رأسه كغزال جفل، وقبل أن تصل إليه استدار وخرج من الباب متجهاً إلى السلالم، وسمعت وقع قدميه المذعورتين تهبط مسرعة إلى الطابق الأسفل حتى قبل أن تفهم تماماً ما حدث.

خرقت شتيمة رونان الاضطراب الذي تملكها، وبعثت الحياة من جديد في قدميها اللتين شلتا بتأثير الصدمة. فلحقا معاً ديڤي إلى الطابق السفلي، وعندما وصلا إلى الردهة سبقها رونان بخطواته الواسعة إلى الخارج. ولكن الأوان كان قد فات إذ تملص ديڤي من قبضة رونان، وقفز إلى سيارة ليلي ثم انطلق بها في الطريق بسرعة انتحارية.

وإذ توقف رونان بشكل مفاجيء، اصطدمت ليلي التي كانت خلفه مباشرة بظهره العريض الصلب مما أفقدها اتزانها كلياً. وكادت تسقط أرضاً ولكنه استدرك الأمر في آخر لحظة فأمسك بها يحميها من السقوط.

جعلها التوتر والذهول لا تحتمل إمساكه لها، خاصة أنها لم تنسَ بعد أسره لها منذ لحظات قليلة.

ـ دعني.

أبعدته عنها ثائرة وقد بلغ غليان مشاعرها حده، فرماها بابتسامة ساخرة وهو يقول هازئاً: «كم تغيرت الأمور منذ كنت..».

فهبّت في وجهه تقول: «حسناً، لا تتفاجأ إن قلت لك إنني لم أعد أشعر بشيء نحوك، هذا ما كنت تسعى إليه، وقد حققت مبتغاك».

بدا رونان متعطشاً إلى افتعال شجار بعد الإحباط الذي أصابه بسبب إفلات فريسته منه. فأراد أن يصب جام غضبه على أي كان.. وصودف أن كانت ليلي بالقرب منه، فسألها ساخراً: «أصحيح هذا؟».

لسعتها نبرة الشك في صحة أقوالها، فرحّبت بموجة الغضب التي تملكتها لتطرد الذعر الذي أصابها منذ لحظة.

ـ هذا الأمر لا يقبل الجدل.

ونظرت إليه بحذر وهو يميل برأسه إلى جانب ويتأملها بنظرات وقحة وهذا ما جعل الدماء تتصاعد إلى وجنتيها.

ـ وهل تريدين أن تثبتي ذلك؟

ـ لا سبيل لذلك!

لكنه لم يبال باحتجاجها بل قبض عليها وجرها نحوه بقوة لم تستطع مقاومتها الضعيفة أن تفعل شيئاً إزاءها.

لقد أحسن رونان تقدير نقطة ضعفها التي تزول عندها دفاعاتها. وبعد أن كانت مسيطرة على نفسها أصبحت تشعر فجأة وكأنها تسبح في فضاء مشرق متألق.

كان رونان يماثلها شوقاً، وهذه المرة أخذ قلبه يخفق عالياً بين ضلوعه وتسارعت أنفاسه وتوهجت وجنتاه.

وارتجفت وهي تفكر في الفرق بين رونان هذا، وذلك الذي رأته قبل دقائق.. ذاك الشخص العديم الرحمة المصمم على الانتقام تحول الآن إلى إنسان تحرقه المشاعر الحارة.

ولكن هل هذا صحيح؟

كانت صدمتها المفاجئة أشبه برشاش ماء بارد على وجهها، لقد استعملها لمتعته الشخصية من دون اعتبار لمشاعرها، ومن ثم نبذها دونما اكتراث ورحل.. فمن يقدم على تصرف مماثل، لا يملك ضميراً، وقد يعاود الكرة إذا دعت الحاجة، فكم هي حمقاء لإذعانها مجدداً لنزواته.

ـ ما الذي تبرهينه الآن، يا حبيبتي؟

تمتم رونان ذلك في أذنها، ثم أضاف:

ـ تريدين أن تبدي مبلغ كرهك لي.. أليس كذلك؟

ـ نعم.

أطلقت صرخة يأس معذّبة شقت جوّ هذا المساء المبكر بقوة جمّدت الطيور على الأشجار وأسكتتها عن الزقزقة.

ـ آه، كم أمقتك.

ارتجف صوتها وهي تتلفظ بهذه الكلمات إذ أدركت مدى براعة رونان ودهائه في التخطيط لإيذائها. ولا شك أن انتظاره لما بعد الزواج للحصول عليها ما هو سوى مؤامرة خطط لها لإيهامها باحترامه مبادئها، فلو أنه حاول استعجالها أو الضغط عليها لخافت منه وترددت في الزواج به. ولكنه، بدلاً من ذلك، كان حذقاً بشكل بالغ الخبث.

لم يتوان قط عن استعمال خداع الذئب المحتال في اصطياد فريسته، إذ حام حولها وراقبها بهدوء، يتحين الفرص، عالماً أن كل ما عليه فعله هو الوقوف مكانه وهي تقوم بما تبقى من دون عناء.

لقد أبدى لها مدى رغبته فيها، وتعطشه إليها. لكنه حاول أن يكبح مشاعره ويدوس عليها من دون رحمة إلى أن تصبح جاهزة لمبادلته تلك المشاعر.

ولما كانت تشعر نحوه بنفس العاطفة التي حسبته يكنها لها، ولما كانت رغبتها فيه توازي رغبته الزائفة فيها، أحسّت بذلك الحب البالغ إليه الذي جرفهما معاً ورغبتها تلك هي التي جعلتها توافق على الزواج في أقرب وقت ممكن، وحبها له هو الذي جعلها تندفع إليه ليلة الزفاف حيث أصبحت ضحية الهجران الوحشي الذي أزال الغشاوة عن عينيها في الصباح التالي.

لقد هجرها بعد أن استولى عليها.. ففي تلك الليلة حولها إلى جاريته العاشقة وأصبحت عاجزة عن تحطيم تلك السلسلة التي قيّد بها قلبها الضعيف الهش.

ـ قلت لي مرة إنك تحبينني.

تمتم رونان بذلك بصوت رقيق كريه هامساً به لأعصابها الحساسة فشعرت لذلك بصرير أشبه بلحن قيثارة ناشز.

لا بد أن هذا أشبه بصوت الحية التي تقتل ضحيتها. ورغم كرهها لرونان كان كفاحها للتحرر من سحره صعباً للغاية، وردت عليه بعنف وعيناها الذهبيتان تتوهجان تمرداً: «هذا صحيح، لكنك دمرت كل ذلك حين هجرتني، قتلت حبي لك ولم تترك مكانه سوى الفراغ».

ـ والآن؟

ألقى هذا السؤال بنغمة غريبة مبحوحة وكأنه لم يستعمل صوته لفترة.

ـ الآن؟

وابتسمت وهي ترى نظرة النصر في عينيه اللتين كانتا تراقبانها: «الآن قد منحتني شيئاً أملأ به ذلك الفراغ الذي خلفته، لم يبق هناك فراغ الآن.. ذلك أن عقلي وقلبي قد امتلآ كراهية لك، كراهية ساحقة لا تتغيّر ولا تلين».

ـ الكراهية؟

لفظ هذه الكلمة وهو يطلق ضحكة مرتجفة.

ـ وهل ما حدث بيننا نوع من الكراهية؟

شعرت بالسخط لتشككه هذا، فدفعت بشعرها إلى الخلف رافعة رأسها، إن كان قد شحذ السكين قبل أن يناولها إياها، فستستعمله ضده بكل سرور.

قالت ببطء، وهي تتأمله بعينيها الملتهبتين بسخرية، متعمدة أن تقلد نظراته الشهوانية التي كان يتأملها بها منذ فترة قصيرة:

ـ إنك مثير للغاية، يا رونان. ولا بد أنك تعلم ذلك تماماً.

سكتت تلتقط أنفاسها، ثم أخذت تنظر إليه بإغراء وهي ترى عينيه تلتهبان تجاوباً. فتعمّدت أن تستفزه قبل أن تتابع قائلة: «حتى الأحمق يلاحظ

انجذاب واحدنا للآخر، وأكون كاذبة إن حاولت إنكار ذلك. صحيح أن عقلي وقلبي ينفران منك، ولكن وجودك وحده كفيل بأن يضرم النار فيّ».

ازدادت ابتسامتها صلابة عندما ظهر بريق غريب في عينيه الداكنتي الزرقة، وتابعت: «ما منحتني إيّاه لي في ليلتنا الوحيدة تلك كان محيّراً، مثيراً.. متفجراً بالمشاعر.. إنها خبرة جيدة اكتسبتها ولا مانع عندي من تكرارها مرة بعد مرة. ولكن من دون عاطفة، أو مشاعر على الإطلاق».

ساد صمت بينهما لم يكن يقطعه سوى حفيف أوراق الشجر، وحركة السير البعيدة وطنين النحل.

أخذ رونان يحدق متوتراً، وقد ضاقت عيناه الفولاذيتان بتأمل، ثم أومأ برأسه ببطء موافقاً وهو يلوي فمه الصلب بشبه ابتسامة ساخرة: «لا بأس، إن كانت تلك كراهية، فهي تناسبني تماماً».

بدا وكأن الزمن قد توقف عن السير، وكل ما استطاعته ليلي هو أن تنظر مصعوقة مخلوبة اللب إلى وجهه الوسيم وهو يقترب.

* * *

لم يكن هذا مبتغاها على الإطلاق.

تملك ليلي الذعر وهي تدرك مذهولة أن خطتها فشلت.

كانت واثقة تماماً من أنها إن بادلته مشاعره بمشاعر أقوى، فقد يشمئز من وقاحتها وينفر منها، أو يدرك أنه لم يعد له عليها سلطة فيتركها لحالها.

لكنه، بدلاً من ذلك، اعتبر كلامها تحدياً، أو ترخيصاً له بأن يجعل علاقته بها مبنيّة على الغريزة، فيعفى بالتالي من القيود التي تكبله كالمشاعر أو الاهتمام بأحاسيس الآخر.

ولا بد أنه ظنّ أن السعد قد واتاه وهو يراها تقدم له مبتغاه على طبق من فضة. فرجل مثله، يحلم حتماً بامرأة تشاركه نظرته اللاأخلاقية إلى التقارب الحميم وتسمح له به متى أراد.

رجل مثير . . ينبض رجولة . .

أخذت كلماتها الحمقاء هذه تتردد في ذهنها مرة بعد مرة، فتشغل بالها وتجعلها تتأوه بصوت مرتفع لغبائها هذا، ولما قال لها رونان ببطء: «هذا ما أشعر به أيضاً».

صدمت إذ أدركت أنه فسّر تجاوبها معه بأنها لا تستطيع مقاومة تأثيره فيها.

ـ رونان . .

أخذ رأسها يدور من القنوط والانفعال، ودفعها الاضطراب إلى فتح الموضوع الوحيد الذي خطر ببالها، راجية أن يصرف ذهنه عنها: «ولكن ماذا عن ديڤي؟».

ونجحت في ذلك، فلو أنها قذفت في وجهه دلواً من الماء البارد لما كان تأثيره أسوأ، فقد رفع وجهه بكبرياء وضاقت عيناه بحدة.

جلّ ما كانت ترجوه هو أن تيسّر لأخيها الهرب، فلا بد أنه ابتعد الآن عن المدينة أميالاً عديدة.

ـ ديڤي.

لفظ رونان اسم أخيها بغضب وقد أخذ يعنف نفسه بمرارة. ما الذي جرى له؟ إنه يريد كورنويل ليجعله يدفع ثمن ما فعل، فكيف سمح لنفسه بأن يقع في الفخ الذي حاكته له ليلي بهذه السهولة؟ ولكن هل سيدعها تحوّله عن غرضه الذي كان يسعى إليه منذ ستة أشهر؟

عليه ألا ينسى أبداً روزالي ومأساة شبابها . . يا إلهي! كم يؤلمه أن يتذكر ما حدث . . إنه لا يكاد يصدق ذلك حتى الآن ولكن هذا هو السبب الأول لوجوده هنا لا بل السبب الوحيد الذي جعله يتورط مع أسرة كورنويل منذ البداية.

ولكنه لم يحسب قط أن تتعقد الأمور إلى هذا الحد . . لم يخطر بباله أنه قد ينجذب إلى أخت ديڤي، ناهيك أن تصبح هاجساً يقلق راحته . . فلو أنه علم أنها ستشغل أفكاره، وتجعله عبداً لرغباته، لابتعد عنها منذ البداية.

ـ في الحقيقة نسيت مسألة ذلك السافل أخيك.

وعلى الرغم من أنها حققت مرادها إلا أنها شعرت بنوع من خيبة الأمل والإهانة وهو يرميها جانباً بعدم اكتراث، وخشونة ليخرج من جيبه تليفونه الخليوي ويطلب رقماً.

ـ جيري، لقد وجدت كورنويل لكنه أفلت مني . . إنه . .

ـ ما الذي تفعله؟

ومدت ليلي يدها إلى التليفون بذعر محاولة أن تنتزعه منه. لكن رونان رفع يده بالتليفون عالياً كي لا تصل إليه، تاركاً إياها تقفز نحوه.

قال لها بوقاحة: «سأعهد إلى شخص آخر مهمة ملاحقة أخيك، أكاد أجن لأنني تركته يفلت مني بهذا الشكل. لكنني كنت مشغول البال . . ».

وبغمزة من عينيه فهمت أن ما شغل باله راق له كثيراً.

ـ وأنا ممتن لك لأنك ذكرتني بأولوياتي.

شعرت وكأنها تلقت صفعة على وجهها تركتها تشهق مصعوقة.

ـ لكن ديڤي . . لا يمكنك أن تطلق سفاحيك في أثره . . إنه.

ـ سفاحيّ؟

أدركت وهي ترى رونان متفاجئاً، أنها استعجلت بالاستنتاج عندما تخيلت ديڤي مطارداً وأسيراً يتعرض للأذى.

ـ جيري ليس سفاحاً، صدقيني! إنه يساعدني في البحث عن أخيك. عليك أن تختاري إما أن أتصل به أو بالشرطة.

تركها أمام خيارين كلاهما مر، فلم تستطع ليلي إلا أن تهزّ رأسها بوهن حزين، حائرة في أمرها. فان استدعى الشرطة فسيتخذ الموضوع منحىً رسمياً. وحتى وإن لم يتعرض ديڤي للأذى، فلا بد أنهم سيوجهون إليه الاتهام.

أيعقل أن يتهم بإلغاء العقد فحسب؟ أم أنهم سيوجهون إليه تهمة سرقة الأموال؟ وهل سيسجن أم سيغرم فقط؟ ولكنه لن يتمكن من الدفع، والله وحده يعلم الاتهامات الأخرى التي قد يلقيها رونان عليه.

ـ آه.. كلا.

ـ هل ترفضين الاتصال بالشرطة أم بصديقي جيري؟

سألها ذلك وقد جعلتها نبرة الاهتمام الزائفة في صوته تصر أسنانها.

ـ لا يمكن أن تستدعي الشرطة!

لم تبذل جهداً لإخفاء الخوف الذي ظهر في صوتها. فقد عانى ديفي من الكوابيس هنا، في هذا المنزل المريح، فماذا ستكون عليه حاله إذن إن أمضى ليلة أو ليلتين في السجن. وارتجف جسدها رعباً لمجرد التفكير في الأمر.

ـ لا بأس..

وقبل أن تعي ما يفعله، أصدر رونان عبر التليفون بعض الأوامر المقتضبة، ثم أقفله.

ـ سيتولى جيري الاهتمام بالأمر.

شحب وجهها لهذه الفكرة..

ـ آه، لا يا رونان، أوقف كلبك البوليسي..!

اخترقت الجوّ ضحكته الخشنة، فماتت الكلمات على شفتيها.

ـ كلب بوليسي! مسكين جيري. سيجرح هذا الوصف غير المستحب كرامته. آه، لا تقلقي يا حبيبتي...

وأخذ يتأمل وجهها الحزين بعينيه الفولاذيتين، من دون أن يظهر شعوراً بالرقة أمام عينيها الذهبيتين الذاهلتين ووجنتيها الشاحبتين.

ـ إنه كفؤ جداً في عمله.

إن كان يقصد تطمينها، فهو لم ينجح، فقد زاد كلامه هذا من توترها. وشعرت بساقيها ترتجفان، وكادت تفضل أن يواجه أخوها الشرطة، على مواجهة قسوة رونان.

ـ وما الذي ستفعله أثناء انشغال جيري بعمله الذي يؤديه بتلك الكفاءة؟

وأنبأتها ابتسامته الباردة الساخرة بأن جوابه لن يعجبها مثقال ذرة.

ـ آه.. أنا مصمم على البقاء هنا لبعض الوقت.. فبعد أن علم أخوك

بمكانك، أظنه سيحاول الاتصال بك مرة أخرى.

ـ لا تكن واثقاً من ذلك.. عندما هرب ديفي في المرة الماضية بقي ثلاث سنوات قبل أن أراه مرة أخرى.

ولكنها لم تكد تفرح بعودته حتى فقدته مرة أخرى. والذنب ذنب رونان، إنها نقطة سوداء أخرى تضاف إلى قائمة جرائمه الطويلة.

قال رونان: «ولكنه لم يكن حينها يعلم بأنك تملكين كل هذه الثروة».

ودخل إلى البيت وكأن الموضوع انتهى ولم يعد ثمة مجال لمزيد من النقاش.

لعل تحررها من تينك العينين الزرقاوين المتفحصتين، وتأثيرهما المغناطيسي هو الذي شجعها على التفكير ملياً بالأمور.

يحتاج ديفي إلى مبالغ طائلة ليفي دينه لرونان، مبالغ تفوق ما قد تستطيع جمعه طوال حياتها. لكنها لم تكن تنظر إلى المشكلة من الزاوية الصحيحة، إذ طرأت فجأة على ذهنها فكرة قد تحل المشكلة.

فارتفعت روحها المعنوية، وشعرت بقلبها يرقص فرحاً.

ـ انتظر لحظة!

استدار رونان بسرعة مجيباً نداءها، مما جعلها تضطرب.

ـ أريد أن أسألك شيئاً.

وإذ شعرت بعينيه المتفحصتين مسمرتين عليها، خانتها شجاعتها بعض الشيء خاصة وأن فروغ صبره الظاهر جعلها تفقد بصيص الأمل الذي لاح لها منذ لحظات.

ـ قلت لي إن هذا البيت ملكي. هل هذا صحيح؟

ـ طبعاً.

وقطب جبينه: «ألم تستلمي أوراقه؟ أنا..».

ـ آه، نعم استلمتها. ولكن هل تعني حقاً أنه ملكي؟

أجاب ساخراً: «إنه لك بأجمعه.. أنت مالكة كل ما ترينه أمامك».

ـ ولا بد أنه يساوي مبلغاً كبيراً من المال.

ـ هذا صحيح.

ونظر إليها بفضول: «لكنني لا أرى..».

ـ أرجوك، هل لك أن تستعيد البيت والنفقة التي وعدتني بها.. وكل ما أعطيتني إياه؟ أنا أعرف أنه ليس مالي، وما أعيده إليك هو ملكك أصلاً، ولكن يمكن أن يوضع في الاعتبار، أليس كذلك؟

حاولت أن تبتسم بتضرع وهي تنظر مباشرة إلى هاتين العينين الداكنتين. لكن ابتسامتها سرعان ما تبددت عندما واجهت قناعاً من الرفض.

ـ لا بد أن ذلك يساعد على تسديد ديون ديڤي، وإن شئت، أوقع على تنازلي عن ذلك كله.

خذلها صوتها وهي ترى الرفض في عينيه: «المال!».

لفظ هذه الكلمة مشدّداً على حروفها، مما جعل ليلي تجفل.

ـ أتظنين حقاً أن (المال) يعوّض.. أو يصلح ما فعله أخوك؟ المسألة أبعد من ذلك بكثير!

ـ ولكن لا يمكن أن يكون الأمر كذلك؟

وشعرت ليلي وكأن العالم انهار حولها. لقد سبق لديڤي أن أخبرها بأن الأمور قد بلغت هذا الحد ولكنها لم تصدقه، إذ كانت تأمل أن يصغي رونان إلى صوت العقل. وللحظة فقط، حسبت أنها وجدت طريقة للخلاص من الكابوس الذي وجدت نفسها فيه. لكن آمالها كلها ذهبت هباء وهو يقذف بتلك الكلمات في وجهها.

ـ رونان، أرجوك..

كم يا ترى يريد هذا الرجل؟ أيعقل ألاّ يخففَ أي تعليل لخسارة المال التي سببها له ديڤي من حقده؟ لقد أخبرها ديڤي أن رونان يضيف الفوائد المرتفعة عن كل يوم يمرّ، مما يعني أنه يدين له بثروة.

ـ ذلك لا يكفي!

أعلن ذلك بلهجة عدائية، وقد التهبت عيناه كالفولاذ المنصهر. ثم

ارتدّ على عقبيه مبتعداً عنها بخطوات واسعة ليختفي عن الأنظار.

ـ لا.

وهزت نفسها بحزم محاولة أن تفكر بوضوح. لن تدع ذلك يحدث، لا يمكنها أن تتخلى عن ديڤي. فصورة وجهه الشاحب الناطق بالرعب محفورة في ذهنها تؤنبها، وتحثها على التصرف. عليها أن ترغم رونان على القبول بالمنزل، كجزءٍ من الدين. بيد أنّها لم تكن تملك أدنى فكرة عمّا ستفعله بعد ذلك.. ولكن عليها أن تقوم بشيء ما.

لحقت رونان إلى غرفة الجلوس حيث كان واقفاً قرب النافذة وفي يده كوباً من العصير.

فقال لها وقد رآها واقفة عند الباب: «شعرت بحاجة إلى هذا العصير، أرجو ألا تمانعي».

جاء تهذيبه البالغ ليتناقض بشكل مزعج مع لهجة التأنيب التي صاحبت كلماته، فشعرت بعدم الارتياح: «البيت بيتك».

ـ أظننا اتفقنا على أن هذا غير صحيح. المنزل ملكك ولا أريد أن تكون لي علاقة به.

قال لها ذلك بقوة أجفلتها.

ـ سأبيعه إذن وأعطيك النقود. عليك أن تدعني أفعل هذا.

ـ عليّ أن أدعك تفعلين؟

ردّد جملتها هذه بلهجة غامضة وهو يسكب لنفسه كوباً آخر من العصير. وشعرت بالراحة وهي تراه هذه المرة، يرشف العصير بهدوء: «لا شيء يرغمني على ذلك».

ـ آه، لكن.. أرجوك! يجب أن أفعل شيئاً لأساعد ديڤي! عليك أن تدعني أساعد أخي.

عليك أن تدعني أساعد أخي.

واستعرت النيران في عروق رونان وأثارت كلماتها غضبه، حتى بات عاجزاً عن التصرف بعقل أو منطق.

عليك أن تدعني أساعد أخي!

ومن ساعد روزالي عندما جعل ديفي كورنويل جمالها يذبل، وسلبها آمالها وطاقاتها الكامنة، ثم دمّرها بحركة واحدة لا مبالية؟ من ساعد والديها وقد حطمهما دمار فلذة كبديهما؟ لقد خلّف ديفي دماراً أسوأ من ذلك الذي يخلفه الإعصار، وها هي تطلب منه العون لإنقاذه.

اشتدت قبضته على الكوب حتى ابيضت مفاصل أصابعه فخاف أن تتحطم في قبضته.

- رونان، أرجوك.. أخبرني فقط بما تريده، ولن أتوانى أبداً عن تنفيذه.

ولم تدرك ليلي الفخ الذي وقعت فيه إلا بعد فوات الأوان.

- أي شيء؟

ألقى عليها هذا السؤال برقة شيطانية، وهو يتأملها بوقاحة ويجول بعينيه الزرقاوين الفولاذيتين في مفاتن جسدها.

غصت ليلي بريقها، وبدا لها أنه يعلم مما ارتسم على وجهها، أنها عاجزة عن خداعه أو الوفاء بوعودها.

ثم ضحك بوحشية قاسية جعلتها تجفل ألماً، وقال بلهجة مسمومة جمّدت الدم في عروقها.

- حتى لأجل عزيزك الغالي ديفي.. لا أظنك تقبلين بأن تحقّري نفسك بلمسي مرة أخرى.

وشعرت بالكآبة تخيم عليها. ليته يعلم مدى تلهف فؤادها الخائن إليه، وحنينها إلى رؤيته وكيف أن قلبها يشعر بالخواء والضياع من دونه. فنظرة واحدة منه تكفي لتحرك حواسها كلها.

وتابع رونان، هامساً بحقد: «أخبريني، يا حبيبتي. لِمَ تكنين لديفي كل هذا الحب؟».

- ألا يمكنك أن تفهم؟ أليس هذا واضحاً؟ إنه أخي وعائلتي الوحيدة.. ولكنك، لا تفهم مثل هذه الأمور!

توهجت عيناه بنظرة جعلت قلبها يخفق خوفاً. وظنت للحظة أنه سيقذفها بالكوب الذي كان يمسك به بحدة، فأجفلت.

ولكنه أخذ نفساً عميقاً وهو يجرع آخر في محاولة واضحة لكبح جماح غضبه الذي كاد ينفجر.

- ربما ليس لديّ أخ أهتم به، مثلك.

قال ذلك وهو يشد على كل حرف ينطق به.. فارتجفت ليلي وكأنها تشعر بوقعها على جلدها الحساس.

- ولكنني أعرف أن حبك العميق لشخص ما يجعلك مستعدة للقيام بأعمال يائسة. أعمال ما كانت لتخطر على بالك وأنت في كامل عقلك.

سألته لتغير الموضوع: «متى ستغادر؟».

نظر إليها نظرة ساخرة: «هل نسيت أنني باقٍ هنا».

- لن يعود ديفي!

- ربما لدي أسباب أخرى للبقاء.

- هل ستخبرني لو سألتك؟ إنك تخيفني يا رونان. ليس من عادتك أبداً ألا تكون معتدلاً في تصرفاتك.

- وليس من عادتك أنت أن تكوني بمثل هذا الحياء والحشمة، كزهرة الزنبق التي تحملين اسمها.

قذفها بهذه الكلمات بوحشية، لكن ليلي سرّت وهي تراه يسير إلى كرسي يلقي بنفسه عليه.

- والآن أخبريني، يا ليلي الحلوة، ما الذي أخبرك إياه ديفي؟

- بكل شيء.

- كل شيء؟

قال ذلك وهو ينظر إليها غير مصدّق على الإطلاق.

- وما زلت تساندينه متغاضية عما فعل؟

ليلي تعلم أن ديفي أحمق وعديم المسؤولية، ويحتاج إلى التأديب. أما ما لم يكن يستحقه فهو ملاحقة رونان له، وتصميمه على الانتقام منه بقدر ما

يستطيع، مهما كلفه الأمر. فهو غير عابىء بالخوف الذي يتملك ديڤي ليل نهار، محولاً لونه إلى لون رمادي من الذعر لمجرد التفكير في رونان غيرين.

ـ كن عادلاً، يا رونان.

وجلست على كرسي أمامه، وجسمها النحيل مائلاً نحوه وعيناها الذهبيتان تتوسلان إليه بأن يتفهم أخاها المشاكس العنيد.

ـ إنه صغير السن.. لم يكن قد بلغ العشرين من عمره حين قابلته، كما أنه على شيء من الحماقة.

ـ قولي هذا مرة أخرى.

قال ذلك وقد ازدادت ملامحه صلابة، وخلت عيناه الفولاذيتان من الرقة.

ـ وهو الآن يشعر بالذنب..

ـ حريّ به أن يشعر بالذنب! إنه يستحق كل ما سيحدث له.

لم يكن في عينيه العدوانيتين أثر للرحمة.

ـ ولكن الغريب في الموضوع، هو أنك لم تسألي عن دورك في هذه القصة؟

ـ آه، هذا سهل معرفته.

تمنت ألا يكون ذلك صحيحاً، ولكن لم يكن أمامها من خيار سوى مواجهة الواقع القاسي. فقد وصلت إلى تلك النتيجة المؤلمة في ظلام الليل، بعد ساعات طويلة من التفكير والتساؤل.

ـ سهل؟

كانت لهذه الكلمة نبرة غريبة متناقضة، مع كل ما حدث من قبل.

ـ آه، لا أظنك ستحاول الادعاء بأن ما أقوله غير صحيح. الأمر في غاية البساطة، أردت أن تصل إلى ديڤي من خلالي. فبعد أن يئست في العثور عليه، تحولت إلي، فسعيت لإيذائي لعقاب ديڤي.

وخيل إليها لبرهة أنه يشعر بوخز ندم. لكنها عندما عادت تنظر إلى وجهه، لم تر أثراً لشيء كهذا.

ـ وهذا ما حدث، أليس كذلك؟ كان الأمر نوعاً من الثأر حيث تدفع الأسرة بأجمعها ثمن جريمة ارتكبها فرد منها.. ألحق ديڤي الأذى بأسرة غيرين، فاستحقت أسرته بأكملها العقاب، أليس كذلك؟

ـ نعم، هذا صحيح.

لم يخفِ ديڤي عنها شيئاً إذن، ودهش وهو يجد صعوبة في تصديق ذلك.. عندما أكدت له أنها تعرف القصة بكاملها، لم يخطر له أنه اعترف لها بما فعل، إذ كان واثقاً من أن شعوره بالخزي قد يجعله يخفي بعض الأمور.

ولكن يبدو أنه قلل من شأن الوفاء الأسري بين هذين الشقيقين.. لم تكن ليلي على علم بجريمة أخيها فحسب بل بذلت جهدها لمساعدته على الهرب من العدالة.

صمت رونان، وتبدلت ملامح وجهه بعض الشيء، مما جعل ليلي تتساءل عما إذا كان يراجع نفسه.

ـ أليس هناك ما يمكنني القيام به؟

نظر إليها متأملاً، وعيناه قاتمتان.

ـ هل كنت حقاً ستبيعين البيت؟

ـ طبعاً! ولن أتوانى عن ذلك.. سوف..

وسكتت متوترة عندما نهض رونان واقفاً فجأة، فتنبهت إلى طوله الفارع، وروعة جسمه القوي.

كم كانت بهجتها كبيرة وهي تشعر بالحب في كل ذرة من كيانها.

مال رونان نحوها ووضع أصابعه القوية المربعة الأطراف تحت ذقنها يرفعها إلى أن أرغمت عيناها الكهرمانيتان المتسعتان على مقابلة العنف المحرق في عينيه.

ثلاثون ثانية، أربعون، خمسون مرت بصمت مطبق وهو يمسكها بهذا الشكل، مسحورة غير قادرة على الحركة. لا تكاد تقوى على التنفس وهو يتفحص وجهها وكأنه يريد أن ينفذ إلى روحها ليجد الجواب الذي يبحث عنه. ولأنها لم تكن تعلم ما يريده بالضبط، بقيت جامدة وقد استجمعت

كل ما لديها من شجاعة لتواجه تفحصها.

وفي النهاية، أخذ رونان نفساً عميقاً ثم أطلق آهة مرتجفة قبل أن يتركها ويبعد شعره الناعم عن وجهه، وهو يتمتم بخشونة: «أظن أن أخاك لا يستحقك».

جعلت كلماته الخشنة والمفاجئة قلبها يخفق بوهن، وكأنها لمحت فجأة نوراً في نهاية ما يشبه نفقاً مظلماً لا نهاية له.. أيعقل أن يتصدع درعه الحصين؟ ويصغي إليها؟

عليها أن تحاول لآخر مرة. قالت ضارعة: «اسمع، ألا يمكننا أن نحلّ هذه المسألة بيننا نحن الإثنين؟ ألا يمكننا..؟».

كان يقع أسير إغوائها. لكن التورط مع ليلي سيعقد الأمور، لأنها ستقنعه بالتحوّل عن الطريق الذي صمم على سلوكه، فينجو أخاها بفعلته ولا يدفع ثمن الآلام التي سبّبها.

ـ لا شيء شخصي بيننا.. وهذه المشكلة بيني وبين ديفي وحده.

نفذت هذه الكلمات في كيانها كما ينفذ السيف القاطع.

ـ آه، لا، هذا ليس صحيحاً!

واندفعت واقفة عندما رأته يهمّ بالابتعاد ليضع حداً للحديث، ثم أمسكت بذراعه توقفه عن متابعة السير. نظر رونان إلى يدها لحظة وقد بدا أنه سينفض ذراعه منها، لكنه تركها مكانها بينما كانت تقول بصوت مرتجف: «لكنك ورطتني معكما، وجعلت الأمر شخصياً عندما طلبت مني الزواج».

فأجابها ببرودة: «ولكنني كنت أعرف أنك أخت ديفي وهذا ما كان يهمني».

ذهلت ليلي وهي ترى نفسها واقفة على رجليها مع أنه خيّل إليها أنهما قد تتحطمان إلى شظايا زجاجية صغيرة لدى أدنى حركة.

ـ إن كنت تعلم أنني.. لماذا.. لماذا إذن.

بذلت جهداً بالغاً لتخرج هذه الكلمات من بين شفتيها الباردتين.

ـ لماذا تزوجتك؟ أم لماذا بادلتك الحب؟

فقدت ليلي أعصابها عند سماعها كلماته تلك.. وأذابت حرارة الغضب الجليد الذي جمّد مشاعرها.

ـ الحب! إياك أن تصف ما فعلته معي بالحب! كلانا يعلم أنه لم يكن كذلك!

ما الذي كانت تتوقعه؟ الشعور بالذنب؟ أم الندم؟ خاب أملها، في كلتا الحالتين. لكنها لم تتوقع قط، هذا الصمت الجامد، وعدم التجاوب معها، وكأن مصراعين من الفولاذ انغلقا على عينيه، ساترين كل أثر للمشاعر.

ـ أخبرني إذن بالحقيقة، لماذا لم تكتف بأن أحبك.. وأتزوجك؟ لماذا لم ترحل تلك الليلة؟

ـ لأسهل الأمور عليك؟ آه، لا يا جميلتي! لم أشأ أن تقولي إن زواجنا لم يكن حقيقياً، أو مكتملاً، وعليك الآن أن تتابعي إجراءات الطلاق التي تستغرق سنوات قبل أن تتزوجي رجلاً آخر.

لم يكن كلامه صحيحاً تماماً، حتى أن نبرته بدت زائفة. لكنها لم تستطع أن تضع إصبعها على ما كان يقلقها بالضبط، كما أن جمود ملامحه لم يساعدها على الإطلاق.. فملامحه خلت من التعبير، وتحولت عيناها إلى قطعتين من الفولاذ اللامع تحت أهداب كثيفة سوداء.

وقالت متلعثمة: «ولكن إن كان عليّ أن أنتظر سنوات لأحصل على الطلاق، فذلك ينطبق عليك أيضاً».

فأجاب رونان بغموض ولهجة فاترة: «نعم، وعليّ أيضاً».

***

٦ ـ لا تقولي لا

ـ لقد أنذرتك بأن ديڤي لن يعود.

مضى أسبوع تقريباً على هرب أخيها من بيتها. أسبوع كان على ليلي فيه أن تتكيف ببطء مع عودة رونان إلى حياتها.

إلا أنها لم تتكيّف مع شيء، بل تعلمت أن تتغلب على صعوبة وجوده في بيتها، وتعيش مع غليان مشاعرها وهي تراه مفروضاً عليها يومياً.

والحق يقال إن الذنب ذنبها وحدها، إذ أرادت أن تثبت عدم اكتراثها بعودته، فارتدّت خطتها عليها بشكل مؤلم.

عندما أعلن رونان، في البداية، عن بقائه، أرادت أن تقاتله كي لا يبقى هنا، إذ لم تكن تحتمل وجوده بقربها. ولكن خطر لها، أنها لو عارضت وجود رونان بشدة، لظن بأنها تهتم لأمره، لأدرك أن شعورها مختلف عما ادّعته، وهذا آخر ما تريده.

لهذا السبب وجدت أنه من الأنسب لها ألا تكترث له حتى يتأكد، أنه لم يعد جزءاً من حياتها.

وعندما سألها عن الغرفة التي سيستعملها، هزت كتفيها بعدم اكتراث: «وهل هذا مهم؟ إنه بيت كبير وغرفه كثيرة، وأظنك ستجد لنفسك غرفة مناسبة بين السبع غرف. اختر ما يحلو لك، ويمكنك حتى أن تستعمل غرفة النوم الرئيسية الخاصة بصاحب البيت، إذا شئت».

أنبأها عبوس رونان بأنه أدرك أنها تشير إلى الغرفة التي أمضيا فيها ليلة عرسهما.

ـ لكنني كنت أظن أنك..

ـ أنام فيها؟

وتكلفت الدهشة لهذه الفكرة.

ـ أبداً في الواقع، لن يدهشني إن وجدت شيئاً متعفناً تحت خشب أرضية الغرفة، لأن رائحة قذرة تفوح في المكان. وهذا هو سبب انتقالي منها إلى إحدى الغرف التي تطل على حديقة البيت الخلفية.

مضى أسبوع الآن على وجوده في المنزل وهو أشبه بأسد جائع ينتظر فريسته بصبر، بينما لا أثر لديڤي.

ـ لقد جعلت أخي يهرب خائفاً، فدمرت بذلك لعبتك الصغيرة القذرة. وإن عاد ديڤي ليضع قدمه في هذا البيت، فسأتفاجأ كثيراً.

فأجاب رونان دونما اكتراث، وهو يقرأ الجريدة أمام مائدة الإفطار في المطبخ الريفي الفسيح.

ـ لكنني لن أدهش. أظنني، من هذه الناحية، أعرف أخاك أكثر منك. إنه بحاجة ماسة إلى المال، وهذا ما يجعله يلجأ إلى أي شيء للحصول عليه.

ـ ليس عليه أن يحضر شخصياً.

توقفت ليلي عن الأكل، وأخذت ترتشف قهوتها بدلاً من ذلك. كان من المستحيل ألا تقارن بين مظهر رونان المسترخي، في بنطلونه الجينز وكنزته الرياضية الزرقاء، ومظهرها الرسمي الجاف، وهي ترتدي بلوزة بيضاء مخرّمة وتنورة صفراء لطقم من أطقمها التي ترتديها للعمل. كانت تعي تماماً أنها أشبه بزائرة غريبة في هذا المنزل بينما رونان يتصرف فيه على راحته.

ـ يكفي أن يتصل تليفونياً.. لتحضري له ما يحتاجه من مال.

وأبعد رونان الجريدة من أمامه وأخذ يتأمل ليلي متفحصاً.

ـ إنك حقاً رقيقة القلب إلى حد مزعج.

بدا عطوفاً تقريباً. وأثارت هذه الرقة غير المتوقعة في كلماته توترها. سبعة أيام أمضتها بجواره لم تخفف من تأثير ملامحه الرائعة ولا من تألق عينيه المغناطيسيتين، ولا من قوته البالغة.

ردت عليه بحدة، تقاوم خفقان قلبها المفاجىء: «رقة القلب هي

ضرب من الحماقة بالنسبة إليك».

رفع رونان حاجبيه دهشة، وسألها باستهزاء: «هل قلت أنا هذا؟ ولكن في مطلق الأحوال، هذا لمصلحتي».

ـ كيف ذلك؟

ونهضت عن المائدة وسارت نحو غسالة الأواني تضع صحون فطورها فيها، وتعيد إغلاقها بعنف كشف عن غليان مشاعرها.

ـ حسناً، يبدو أن ديڤي يحسن استغلالك. وعلى رغم من تواريه عن الأنظار حالياً، أظنه سيخرج من مخبئه بعد فترة قصيرة، ليجدني هنا.

فأخذت ليلى تفكر بمرارة كيف سينقض عليه كالوحش الكاسر.

اختار رونان من بين كل غرف المنزل، تلك المجاورة لغرفة ديڤي، ليتمكن من سماع صوت دخوله إلى غرفته إن جاء متخفياً في الليل.. وبما أنه نادراً ما يغادر المنزل أثناء النهار، فلن تستطيع أن تمنع أخاها من الوقوع في الفخ الذي نصبه له.

ـ أظنك قلت إن لديك عملاً تقوم به أثناء وجودك هنا.

فأوما رونان برأسه ببطء: «هذا صحيح، المفروض أنها رحلة عمل و.. للعمل كما هي للـ...».

وبتر جملته، ولم تستطع هي أن تضع كلمة مناسبة في الفراغ، وكلمة الاستمتاع لا تناسب أي معنى رغم أن عليها أن تعترف أن رونان يشعر برضا حاقد في لعبة انتظاره هذه.

ـ لقد قلت إنه عليك معاينة المكان.

ـ نعم.

وافقها رونان الرأي وهو ينهض بكسل ويتمطى باستمتاع: «إنه ناد للرقص، خطر لي أن أذهب الليلة لرؤيته حتى أحكم على نوع زبائنه».

حولت ليلى نظراتها عنه بسرعة، متجاهلة جاذبيته القوية. كان قماش قميصه القطني ملتصقاً بعضلات صدره وبنطلونه الجينز شديد الالتصاق بساقيه القويتين، وقالت له فجأة: «لا يبدو لي أنهما من الأشياء التي تهمك

عادة».

ـ هذا صحيح. ولكنني سمعت أنهما في حالة مادية سيئة مما يعني أنها صفقة جيدة فإذا وجدتهما كذلك، فقد أشتريهما.

هذا ما فعله مع ديڤي بالضبط، وأرسلت هذه الفكرة قشعريرة باردة في كيان ليلى. أتراه سيقوم هذه المرة أيضاً بإحدى أعماله الشريرة، محولاً الوضع إلى مصلحته، تاركاً أصحاب المكان في ارتباك وضياع كما فعل مع أخيها؟

سألته بلهجة لاذعة: «ما الذي تبحث عنه، يا رونان؟ شخص آخر تقلب حياته رأساً على عقب؟».

قابل رونان تعليقها اللاذع هذا بنظرة تأمل بطيئة زادت من الغليان الذي كانت تشعر به في داخلها.

ـ دمر ديڤي نفسه بنفسه، يا ليلى. لم يكن بحاجة إلى مساعدة مني.

ـ ولكن لا أحد سواه يدفع الثمن.

رغم أن رونان كان يتقدم فقط ليضع طبقه وفنجانه في غسالة الأواني، إلا أن ذلك استنفذ كل ما لديها من سيطرة على النفس للثبات في مكانها بسبب قربه منها إلى هذا الحد. بدا بجانبها مهيباً قوياً إلى درجة خطرة.

ـ أتعرف ما الذي تفعله بأخي؟ إنه لا يأكل ولا ينام. وإن غفا دقيقة راودته الكوابيس، كنت أسمعه يصرخ..

وماتت الكلمات في حلقها وقد رفع رونان كتفيه العريضتين يهزهما بعدم اكتراث، وهو يقول ساخراً: «إنني أعرف جيداً معنى الأرق. المعذرة!».

بعد أن أطلق كلماته الأخيرة محذراً، قفزت ليلى مبتعدة عن طريقه، وعيناها تتحولان إلى قامته الصلبة وهو ينحني ليضع ما بيده في غسالة الصحون.

بدا شعره الأسود الجميل تحت أشعة الشمس المنسابة من النافذة رائعاً مموّهاً بالذهب، تتألق فيه خيوط نحاسية تتخلل دكنة شعره. كان قد طال عما كان عليه عندما قصه يوم الزواج فلم يعجبها، وتشوّقت أصابعها إلى أن

تداعبه وتشتبك به حيث يجمعه عند رقبته ناعماً متألقاً.

ـ ما رأيك؟

أيقظها هذا السؤال من أحلام اليقظة بعنف، فالتفتت لتلتقي عيناها الذهبيتان بعينيه الزرقاوين الفولاذيتين، وطرفت بعينيها باضطراب وهي تدرك أنه يتوقع منها جواباً لسؤال لم تكن سمعته.

ـ هذا ممكن.

قالت ذلك مراوغة وقد تملكها ارتباك مؤلم وهي ترى أن أفكارها جعلت حلقها يجف بحيث خرج الكلام أبح متهدجاً.

ـ سأمر لأخذك إذن بعد انتهائك من العمل، فالنادي لا يُغلق أبوابه قبل ذلك..

ـ انتظر لحظة!

وهزت رأسها لتطرد منه تخيلاتها تلك.

ـ أي نادٍ؟

فتنهد باستسلام: «الليدز».

لفظ الكلمة بتمهل ووضوح، وكأنه يتكلم مع طفل بطيء الذكاء.

ـ ذلك الذي سأقصده هذا المساء. ذلك الذي وافقت لتوّك على الذهاب إليه معي.

ـ لم أفعل شيئاً كهذا.

لكنها ما لبثت أن أدركت أن هذا هو السؤال الذي لم تسمعه. وقد فهم رونان من جوابها المراوغ أنها وافقت على عرضه عليها مرافقته. فعادت تقول: «لا أدري ما الذي جعلك تفكر في أنني أريد الذهاب إلى أي مكان معك، إنني أفضل الموت على ذلك».

كانت رجفة الاشمئزاز التي صدرت عنها القشة الأخيرة التي قسمت ظهر البعير. فطوال الأسبوع الماضي وهو يجاهد في سبيل السيطرة على مشاعره نحو ليلي. وكأنه يحاول عبثاً وضع غطاء على فوهة بركان على وشك الانفجار، أو اعتراض تدفق حممه البركانية بشبكة صيد سمك صبيانية.

بعد ليالٍ طويلة من الأرق، محاولاً أن يتجاهل ردة فعله إزاء مرآها، ورائحتها، ورنة صوتها، عيل صبره، وأصبحت رغبته فيها جامحة إلى حد أنه لم يعد يهتم لما قد ينتج عن استسلامه لها.

حتى ليلي لم تكن أحسن حالاً، إذ بعد تعبيرها الفظ عن مشاعرها نحوه، بدت وكأنها تراجعت منكمشة على نفسها. ولكنه أخذ يفاجئها وهي تتأمله من حين لآخر، دون أن تدري بأنه يراها ولأنه كان يشاركها شعورها كان يدرك مبلغ ما في عينيها من شوق إليه.

لم يعد من سبيل لإنكار شوقهما نحو بعضهما البعض. فقد كان أشبه بوميض البرق يتلاعب حولهما في ليلة عاصفة، يتطاير فيها الشرر في الجوّ ويزيده اختناقاً مع كل دقيقة يمضيانها معاً.

لقد نال قسطه من التوتر، وآن الوقت للحد من ذلك وإلا ستكون نتيجة الانفجار بقوة قنبلة ذرية ولكن النتيجة المدمرة هذه المرة ستكون عاطفية لا مادية.

لم تستطع احتمال قبوله رفضها، وتجاهله ردّها الساخط العنيف، إذ جاء التأثير معاكساً لما كانت تتوقع، مما جعلها تعيد التفكير في الأمور للحظة قصيرة.

وقال لها: «سأذهب وحدي».

ـ وماذا لو عاد ديفي؟

ما الذي تفعله؟ إن ذكرته بسبب وجوده هنا فسيغيّر رأيه ويتخلى عن فكرة الذهاب إلى النادي ليبقى منتظراً عودة أخيها.

لكن الدهشة تملكتها وهي ترى رونان غير منزعج لهذه الفكرة: «عليّ أن أجازف. وعلى كل حال، جيري يتولى اقتفاء أثره، وأخوك اللعين ليس السبب الوحيد لوجودي هنا».

ـ طبعاً، فأنت تحاول أن تزيد ثروتك بغرس مخالبك في ضحايا أخرى لا تستطيع رؤية مراميك الخفية.

قذفت هذه الكلمات اللاذعة في وجهه المظلم المنضبط.

فقال يثبت كلامها بعدم اهتمام: «لا شك في ذلك. ولكن لدي أسباب أخرى شخصية، فنحن زوجان».

قال ذلك موضحاً بينما أخذت هي تحدق إليه بارتباك قبل أن تنفجر قائلة: «وكلانا يعلم أن ذلك لا يعني شيئاً على الإطلاق!».

فرماها بابتسامة بطيئة خطرة وهو يتقدم ببطء نحوها جاعلاً إياها تتصلب في رفض غريزي ثم يتمتم بنعومة وبصوت أجش: «ربما، ولكنه زواج شرعي، يا حبيبتي ليلي، و.. وقد أتممناه بشكل رائع، فأنت زوجتي وتحملين اسمي».

ـ كان ذلك ملائماً لهدفك، لكن سبق لي أن رتبت أمر زواجنا المهزلة، ولن أزعج نفسي بإعادته إلى ما كان عليه.

لكن صوتها اللاهث دمّر صورة الإنسانة المنضبطة التي حاولت أن ترسمها لنفسها، فكيف يمكنها أن تخفي عنه ذلك؟

قال لها بنعومة: «من المؤكد أنه ملائم جداً..».

نسج صوته المنخفض الأبح حول أحاسيسها سحراً أيقظ كل منهما. راح يقترب منها حتى لفحت أنفاسه وجهها وتغلغلت رائحة عطره القوية في أنفها.

ـ بإمكاننا الآن أن نتابع ما بدأناه.

ـ أبداً.

ولكنه تجاهل ردها وراح يحدّق إليها برقة فائقة.

ـ أنا.. لا أريد..

ـ كاذبة..

قال هذا بنعومة، فنشب في داخلها صراع حاد بين عقلها ورغباتها هدد بتمزيق كيانها.

فمنذ ليلة عرسهما وهي تحترق شوقاً إليه. خلال تلك الساعات الطويلة الرائعة المليئة بالمشاعر، فتح رونان لها باب منجم من الأحاسيس لم تعرفها قط، ولقد فتح ذلك الباب تلك الليلة وعندما رحل أخذ المفتاح معه وبذلك

لن تتمكن من إغلاقه في وجهه مرة أخرى حتى إن حاولت ذلك.

ـ لا أريد...

حاولت التملص منه مجدداً ولكن دروعها سقطت أمامه، وعادت تلك الابتسامة الساخرة إلى شفتيه وهو يفك عقدة شعرها ويتركه مسترسلاً على كتفيها، ليجر بعدها رأسها برقّة إلى الخلف ويرغمها على مواجهة نظراته الهادئة المتأملة.

ـ أنا لا أصدقك، يا حبيبتي.. فما جمعنا كان أشبه بحريق هائل خرج عن السيطرة، وبات من الصعب على شيء تافه كالتفكير العقلاني أن يخمده. وأظن أن الجمر لا يزال مشتعلاً، ولا يحتاج إلى الكثير ليستعر.

لكن ابتسامته التوت، وتحوّلت إلى عبوس عندما أبعدت رأسها عنه بعنف. فتابع كلامه قائلاً:

ـ ولكن إن لم نسيطر عليها فستحرقنا معاً. أما إذا كبحناها، فقد نصاب بالجنون، فلمَ لا ننتهز إذن فرصة وجودنا معاً، يا زوجتي الجميلة؟ لماذا لا نعترف بأن كلينا يتلهف لذلك؟

ـ ألن يعيق ذلك طلاقك مني؟

قالت ذلك بصوت أبح، محاولة أن تتمسك بالحجة الوحيدة التي طرأت على ذهنها، فإن لم يطلق سراحها فستضيع حتماً، فهي عاجزة عن مقاومة حبها المدمر له أكثر من ذلك.

وتملكها الذعر حين جاء جوابه على خلاف ما توقعت: «ومن قال إنني أردت الطلاق؟ فعندما ذقت طعم الحياة الزوجية فتحت شهيتي للمزيد. أريد أن أتذوق المزيد والمزيد منها».

أغمضت ليلي عينيها لبرهة وكلماته الساحرة الهامسة تداعب أحاسيسها. لكنها عادت ففتحتهما حتى لا تذهب بعيداً في أحلامها.

ـ تريد استغلالي لقضاء رغبتك الأنانية فحسب.

لم ينكر ذلك. حتى أنه لم يظهر لمحة خجل أو ارتباك إزاء هذا الاتهام العنيف له، بل أومأ وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كريهة: «والأمر سيان

بالنسبة إليك، فقد قلت إنك توقفت عن حبي».

هتف صوت عميق في داخلها: كنت أكذب! كنت أكذب! فأنا أحبه ولن أتوقف يوماً عن حبه، فحبه يبعث فيّ روح الحياة.

ـ ربما حبك مات، ولكنك لا تستطيعين الادعاء بأن مشاعرك تجاهي قد ماتت مع حبك.

تابع رونان يقول بعناد وقد بدت العزيمة على ملامحه: «لا يمكنك الادعاء أنك لا ترغبين بي لأن ذلك كذب، وكلانا يعلم ذلك، إنه مكتوب على جبينك وفي عينيك. ولا يسعك إنكار تجاوبك معي، والشوق الذي تشعرين به، والطريقة التي..».

وصمت للحظة يستمع بتأثير كلماته فيها ثم تابع يقول:

ـ كلما لمستك خفق قلبك كعصفور متوحش مع أنك تقولين إنك لا تحبينني. إذن أنت تعانين مما اتهمتني به للتو. إنها عبارة عن مشاعر محمومة من دون إحساس.

ثم تابع يقول هامساً وقد أحنى رأسه بعزم راسخ: «أواه، يا جميلتي، يا له من سحر! ويا لها من مشاعر عنيفة».

كانت كل جملة تعتصر الفؤاد ألماً، وتمزّقه بوعود الحب الكاذبة، والمشاعر التي لم تساوره قط.

ـ قلما يهمني إن كنت هدفاً لإشباع رغباتك، فلمَ تتذمرين أنت؟ فكلانا راشد، وكلانا يعاني من ذات الحمّى.

فقدت رشدها، ولم تعد تقوى على السيطرة على نفسها، ولا على كبح مشاعرها الجامحة.

وتناهى إليها صوته يقول: «هذا ما يجب أن يكون بيننا، وهذا ما كان على الدوام وما سيكون. تعلمين أن هذا ما تريدينه، يا حبيبتي ليلي، وتذكري ليلة عرسنا الرائعة فلا تقاومي إذن.. لا تفكري في شيء، بل اتركي لقلبك العنان».

تذكري..! وفي الهوة المظلمة التي غرق فيها عقلها، تردد صدى

صوت رونان يقول هذه الكلمة من قبل، وبطريقة مختلفة تماماً.

ففي ليلة عرسهما غلظ صوته وهو يوصيها بشمانة بألا تنسى أبداً (تذكري!) قائلاً (تذكري جيداً..).

وكيف لها أن تنسى؟ كيف لها أن تمحو من ذهنها تصرفه معها يومها وانجرافها في تيار الهجوم الذي شنه عليها؟ كيف لها أن تنسى خوفها لحظة تبدد الوهم في نهاية تلك الليلة الخداعة، والحقيقة المخيفة التي دمرتها أحلامها الحمقاء بالسعادة، وحولتها فتاتاً في لحظة واحدة؟

ـ لا.

وفي عذاب اليائس، انتزعت نفسها مبتعدة عن كلام رونان المدمر، وقالت بصوت ممزق: «كلانا يعلم أنه إن لم ترافق ذلك مشاعر قوية، فلا يعتبر سوى شهوة بدائية تجعلنا بمستوى الحيوان».

أخذت أنفاسها تتسارع وهي تعي أن رونان قد تسمر، وأوقف هجومه العنيف عليها.

ـ يمكنك بالتأكيد أن تؤثر فيّ، وأنا لا أنكر أن ذلك..

اهتز صوتها توتراً. وانتابها إحساس قوي بالألم، وكأن جسدها قد أصبح كتلة من الرضوض.

ـ بإمكانك أن تصل بي إلى النقطة التي أفقد فيها القوة على التفكير، حيث تهزم رغبات الجسد، العواطف، حيث لا أعود بشراً بل مجرد إنسانة مخبولة.

تعمّدت أن تكرر كلماته هذه، بلهجة لاذعة: «كومة من الأعصاب والهرمونات، آه، نعم. يمكنك أن تجعلني هكذا!».

سمعت رونان يتنفس بصوت أشبه بالفحيح، ولكنها لم تجرؤ على رفع نظراتها إلى ذلك الوجه الذي لم يكن يبعد عنها كثيراً.

ـ ولكن كن واثقاً، يا رونان، أنه إن قررت المضي قدماً، فسيزداد مقتي لك، مع كل لحظة استمتاع أعيشها. إن شئت استغلالي، ودفعتني إلى أن أعاملك بالمثل، فسأكرهك إلى آخر عمري لأنك جعلتني أنحدر إلى هذا

الدرك.

ساد صمت عميق مثقل بالخطر شعرت به مطبقاً عليها يكاد يخنقها. تحرك أخيراً رونان أخيراً مبعداً شعره بيده الخشنة عن وجهه فأظهرت هذه الحركة مبلغ التوتر الذي تملكه.

ـ قد يستحق الأمر العناء.

تمتم ذلك بخشونة، جعلت ليلي تجفل خائفة، وهي تنظر إلى وجهه بعينيها الواسعتين، لتجده وقد عاد إلى جموده وانغلاقه. ولكن ما إن التقت أعينهما حتى تغير مزاجه وأطلق سيلاً من الشتائم بصوت منخفض:

ـ تباً لك، يا ليلي!

قذف هذه الكلمات في وجهها وهو يتحرك بسرعة تكاد تكون عنيفة: «أنت تحسنين إثارة غضبي، لم يكن من داع لتشبيهي بأحط أنواع الأحياء التي زحفت لتوّها من قوقعتها.. كان يكفي أنّ ترفضي لأفهم غرضك».

ـ أحقاً؟

رماها بنظرة سوداء مليئة بالازدراء عبرت كل التعبير عن مشاعره. فجاء هذه المرة دورها لتشعر بنفسها وكأنها أحط أنواع الأحياء.. وهو شعور لم يعجبها على الإطلاق.

ـ حسناً، سأتذكر ذلك في المستقبل.

قالت ذلك وهي ترتجف.

ـ لا تنسي أن تفعلي ذلك.

كانا أشبه بقطين متخاصمين، وهما يتبادلان النظرات بحذر، رافعين رأسيهما، وقد تصلبت أكتافهما عداءً. لم تشأ أن تكون أول من يحوّل عينيه، ولكنها أرادت تسوية الأمر ولم تعرف كيف تخترق هذا المأزق الصامت.

إلا أنه وبعد أن أخذ يسيطر ببطء على تلك الدوامة الهائلة من المشاعر التي كانت تغلي في داخله لرفضها له، وجد نفسه يتحوّل من شعور إلى آخر من دون أن يعلم على أي منهما عليه أن يستقر.

كان الشعور بالإحباط هو الذي استولى عليه أكثر من غيره. إحباط

محرق ومؤلم، حوله إلى إنسان غاضب خائر القوى. لكن المشكلة هي أنه لم يعلم ما إذا كان غاضباً على ليلي، أم على نفسه، أم على هذا الوضع المعقد الذي وجدا نفسيهما فيه.

تباً للبائس ديفي كورنويل! حول تفكيره إلى الشخص الملام لورطته هذه. ليت ليلي لم تكن شقيقة ديفي! ولكن لو أنها لم تكن شقيقة ديفي، لما التقيا منذ البداية. فهو سعى لحضور عرس صديقه «هودغسن» بغية التعرف إليها.

وعادت نظراته تتفحص شعرها الأشقر الرائع وشفتيها المكتنزتين.

إنه متعطش إليها.. إنه متعطش إلى تلك العواطف المشبوبة التي تبادلاها ليلة عرسهما، ولا يمكنه أبداً أن يذعن! ويدعها تفلت منه بهذه السهولة.

عليه أن يبذل جهده حتى يجعلها تأتي إليه بكامل إرادتها، عاجزة عن كبح عواطفها.

لكن ذلك يتطلب اعتماد وسائل جديدة، ثمة أكثر من طريقة لسلخ هذه القطة. فقد كانت ليلى أشبه بقطيطة صغيرة غاضبة منها بحيوان مكتمل النمو. لذا، عليه أن يعالج معها الأمور باللين.

ـ هل أفهم من ذلك أنك لن ترافقيني إلى نادي «الليدز» أيضاً؟

نظرت إليه ليلي بارتياب، مستغربة هذه الرقة المفاجئة في صوته، والابتسامة المتألقة التي رماها به. ما الذي يا ترى، غيّر مجرى الريح؟

فتحت فمها لتؤكد له أنها لا ترغب بمرافقته، عندما طرأت على بالها فكرة جعلتها تبدل رأيها.

سيذهب رونان إلى «الليدز» لمعاينة بعض الأملاك، فإن أعجبته، فسيضع يده عليها، كما فعل مع ديفي تماماً. وكانت تخشى أن يلقى أصحاب تلك الأملاك المصير نفسه الذي لقيه أخوها، وتمنت لو أنها تستطيع مساعدتهم. فإن ذهبت معه الليلة، فقد تتمكن من تحذيرهم، حتى لا يرتكبوا أيّ حماقة.

فاندفعت تجيب: «لا».

وإذ تغيّرت ملامحه أدركت أنه فسّر جوابها برفضها مرافقته، فعادت تصحّح له بسرعة: «أعني أنني سأرافقك إلى الليدز».

إذاً وكما سبق له أن أدهشها، جاء دورها لتفاجئه. فقد طرف بعينه لبرهة وعاد بعدها إلى توازنه وهو يسألها: «هل يمكنني أن أسألك لماذا؟».

فهزت كتفيها بعدم اكتراث: «لم أرافقك إلى أي مكان منذ دهور. قد لا يكون الليدز مكاني المفضل، ولكن إن كان هذا ما تعرضه عليّ، فسيسرني قضاء ليلة في الخارج».

فأجابها قائلاً: «إنك غمرتني بعطفك لتشريفك لي بالقبول. سنغادر البيت في السابعة إن كان ذلك يناسبك».

لأول مرة منذ عودته، شعرت ليلي بأنها تمكنت إلى حد ما من السيطرة على الوضع. لقد أثبتت ذاتها، وخلقت لنفسها إحساساً بالارتياح حثها على رميه بابتسامة واسعة متألقة، وهي تقول: «هذا يناسبني تماماً».

ولم تدرك إلا في ما بعد، سبب نظرة الرضا والارتياح في عينيه، تلك النظرة التي رأتها قبل أن يشيح بوجهه عنها مباشرة.

***

٧ ـ أمواج الحب

ـ هل أنت مسرورة؟

همس بصوت دافىء في أذن ليلي، بينما كان رأسه محنياً قرب رأسها.

ـ هممم..

كانت تشعر بالسرور حتى الآن بالنسبة إلى السهرة، مع أنها لم تتوقع قط أن تشعر بالمتعة. ولكن منذ اللحظة التي ظهرت فيها عند أسفل السلم عند الساعة السابعة بالضبط، بدا وكأن الليلة ستكون مميزة.

كانت قد أمضت وقتاً طويلاً تفكر في ما ستلبسه قبل أن يستقر رأيها على ثوب بلون الشفق تصل تنورته إلى ما فوق ركبتيها مباشرة، زينته بقرطين فضيين وعقد ملائم. أما حذاؤها العالي الكعبين فمنحها مزيداً من الثقة بنفسها وهي تبدو من الطول بحيث تمكنت من النظر إلى وجهه لترى تأثير مظهرها عليه.

ولكن ما رأته في عينيه سرّها وأخافها في آن معاً.

ـ جميل جداً.

قال ذلك ببطء، وقد أثّرت البحة في نبرته على أعصابها وجعلتها تأخذ نفساً عميقاً وتطلق شهقة صغيرة مرتجفة.

ـ ولا بأس بملابسك أيضاً.

وأرغمت نفسها على المضي في تقويمه مروراً بقامته الفارعة الضامرة في بذلته الرمادية الفضية الإيطالية الطراز، وقميصه الأبيض. وأخذ قلبها يخفق غريزياً وهي تشعر بانجذاب قوي نحو هذا الرجل الواقف أمامها.

بدا لها جذاباً في ظل أشعة الشمس المائلة للغروب التي أحالت خصلات شعره النحاسية إلى لهب برونزية وكشفت عن رجولته البارزة. وبالرغم من جهودها الشاقة للحفاظ على هدوئها، إلا أن جاذبيته المغناطيسية كانت تشيع الدفء في كيانها لتجعلها بالغة الضعف إزاءها. لعلها ربحت المعركة بشكل عام، ولكن الحرب بينهما لم تنته بعد.

وإن ساورها الشك في الأمر، فقد حصل ذلك هنا وجسم رونان قريب منها، ونظراته مسمرة على وجهها، وقد ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه المعبّرتين.

لم تستطع البقاء جامدة، عليها أن تفعل شيئاً وإلا سقطت بين ذراعيه. فتململت في مكانها عاجزة عن التخلص منه أو تجاهله.

ـ فلنرقص مرة أخرى.

فتأوه باحتجاج: «أريد أن أشرب شيئاً».

ـ إنك ضعيف وجبان.

قالت ذلك بحدة لتتخلص من ذلك الإغراء الذي حدثتها به نفسها، ومن دون أن تعي ما تفعل، قالت: «هيا، لا يمكننا الجلوس هنا طوال الليل بهذا الشكل، فقد جئت معك لأستمتع بوقتي».

وجذبته نحو حلبة الرقص الخشبية الصغيرة، شاقة طريقها بين الجمع المزدحم. ثم راحت تتنقل على الأنغام محاولة كبح جماح أفكارها أكثر منها التجاوب مع الموسيقى.

وكم دهشت وهي ترى رونان يرقص برشاقة طبيعية غريبة بالنسبة إلى حجمه فابتسمت مسرورة، وهي تحاول أن تحول أفكارها إلى شيء أكثر إمتاعاً.

كانت خطواتهما منسجمة، وجسداهما يتمايلان متجاوبين مع موسيقى القيثارة والطبل من المسرح.

ـ إنهم يجيدون العزف.

وأشارت برأسها إلى الفرقة الموسيقية المحتشدة في زاوية والمؤلفة من

أربعة فتية لا يكادون يتجاوزون سن المراهقة، يفتقدون إلى الهندام الحسن، ولكن يعزفون بشكل حيوي ومناسب لليلة كهذه.

ـ يستحسن أن يستمروا بالعمل هنا إن قررت شراء هذا المكان.

جاهدت لترفع صوتها فوق دقات الطبل وإذا بها تشهق وهو يمسك بيدها ويديرها نحوه: «أتظنين ذلك؟».

ألقى عليها هذا السؤال وشفتاه تكادان تلمسان أذنها، ما جعلها تتصلب متوترة الأعصاب.

ـ حسناً، لقد أحببتهم. ولكنني لست خبيرة في هذا الميدان.

ـ أنت أخت ديڤي وكان عليك أن تعلمي شيئاً. من المؤكد أنه ليس الوحيد الذي يملك موهبة موسيقية في أسرتك.

ما إن ذكر اسم ديڤي، حتى تبددت البهجة التي كانت تشعر بها. فذكرى أخيها وأحلامه الضائعة، تلك الأحلام التي كانت تراوده منذ الصبا، أعادتها إلى واقعها، وذكرتها بذلك الوضع الصعب الذي فرضه رونان على أخيها، وحوله إلى إنسان يائس مدمر. وتغير مزاجها فجأة، وتسمرت قدماها وكأنما قيدتهما فجأة بثقل من الحديد، فوقفت وسط حلبة الرقص دونما حراك، غافلة عن الأجساد التي تدور حولها.

فأخذ رونان يعنف نفسه: «يا لي من أحمق غبي! ما الذي جعلني أذكر اسم ديڤي؟ بعد أن بدأت تسترخي وتستمتع بالحفلة، إذا بي أذكرها به..».

كان وجوده مع ليلي أشبه بدوامة من المشاعر تارة تعلو وطوراً تهبط. ولكنه، إذا حدث وفكر في التخلي عنها، فما عليه إلا أن يتذكر مظهرها وهي ترقص. فصورتها وهي تتمايل على وقع الأنغام مبتسمة، تكفي لتضرم شوقه وتلهفه إليها. ذلك الشوق الذي تحول هاجساً في الأيام الأخيرة.

نظر إلى وجه ليلي الجامد، ورأى التعنيف المرّ في عينيها، فتغير مزاجه على الفور.

ـ نعم، أنا أخت ديڤي، ولهذا عليّ أن أحذر أولئك الفتيان من التعامل معك. لأنك لن تكتفي بموسيقاهم، وموهبتهم، وإنما ستدمر حياتهم

وتمتص دماءهم وتقبض على أرواحهم.

ـ لا أريد الانتقام من أحد غير ديفي.

رد عليها بذلك ببرودة، والقناعة التامة في صوته.

أرسل الحقد الأسود الذي شاب كلماته قشعريرة خوف باردة في جسمها الذي كان يتوهج حرارة، مما جعلها ترتجف متشنجة. عليها أن تبتعد عنه الآن وإلا أصيبت بنوبة عنيفة من القيء، هنا في وسط حلبة الرقص.

ـ . . يجب أن أذهب إلى غرفة السيدات.

قالت ذلك وهي تشهق مرتجفة وتقفز مسرعة قبل أن يستوعب ذهنها تماماً التواء فمه الساخر لعذرها الكاذب هذا.

وفي غرفة السيدات، غسلت وجهها بالماء البارد واضعة معصميها تحت صنبور الماء لتهدىء من تسارع نبضها. ليتها لم ترافقه! إنها تكره رونان، تكرهه وتعشقه في آن معاً. وقد يرتد ذلك عليها سلباً إن اشتعلت شرارة أخرى في جسمها حين يقترب منها.

إنها تكرهه الآن أكثر من أي وقت مضى، لأن هذه الهدنة القصيرة التي سادت بينهما الليلة جعلت معالجة الأمور بينهما أصعب وأكثر استحالة. فعند عودتهما إلى حياتهما العادية، ستشعر بأنها أشبه بساندريلا عندما دقت الساعة الثانية عشرة. ولكن الأسوأ هو أن عربتها والحصانين قد تحولت إلى يقطينة وزوج من الجرذان، وحتى الأمير الجميل نفسه تحوّل إلى الجرذ الأكبر بينهما.

بقيت في غرفة الاستراحة لبعض الوقت، ولم تخرج منها إلا بعد أن تأكدت من أنها لو تأخرت لحظة أخرى فسيحطم رونان الباب ويخرجها بالقوة. كانت تتوقع تماماً أن تجده منتظراً في الخارج لينقض عليها حالما تخرج، وكم كانت دهشتها بالغة وهي تراه واقفاً عند المقصف بكل هدوء.

ـ ظننتك إما هربت من النافذة.

قال لها ذلك بنبرة هادئة، فأذهلتها بدقة تكهناته لأفكارها. وتابع

يقول: «وإما أنك أقفلت الباب على نفسك».

ـ أنا . .

وأخذت تفكر في جواب مناسب. لكن رونان لم يكن يصغي. بل أضاف يقول: «علينا أن نذهب، حان الوقت لتغيير المشهد».

وحان الوقت لمواجهته بجرأة، فرفعت رأسها بعزم وقالت: «وماذا لو أنني لم أشأ ذلك؟».

ـ أتريدين البقاء هنا؟

وأشار بازدراء، إلى حلبة الرقص الضيقة المزدحمة، والديكور القذر والجوّ الخانق بالدخان.

عندما نظرت ليلي حولها، إذا بفتى يغمزها بعينه بشكل فاسق.

ـ أنا . .

حاولت الكلام ولكنها لم تستطع أن تكمل جملتها.

فقد أطبق رونان على معصمها بقبضته بقوة أجفلتها، ثم جذبها بعنف مرغماً إياها على أن تتبعه متعثرة وهو يغادر المكان بخطوات واسعة جعلتها تهرول مرتبكة لتجاريه في السير.

ـ دعني، يا متوحش.

لم تكن واثقة إن كان سمعها. لكنه وقف فجأة فاصطدمت به.

وعندما استعادت توازنها، عادت تقول: «دعني أذهب».

واستعملت يدها الطليقة لتضرب بعنف ذراعه التي تمسك بها، شاعرة بقوة عضلاته تحت قماش سترته الحريري.

ـ كيف تجرؤ على معاملتي على غرار رجل الكهف الذي كان يجرّ امرأته من شعرها؟

ـ لو كنت أعلم أن هذا ما تفضلينه . .

تعمد رونان جرحها بهذه الكلمات. كانت واثقة من ذلك رغم أنها لم تحبّ الطريقة التي أخذت يده غير الممسكة بيدها تلامس شعرها الذهبي المنسدل على ظهرها. ولم يتركها إلا عندما أخذت تصفر ضيقاً، فابتسم

ساخراً وهو يقول بهدوء: «أردت إبعادك عن ذلك المكان. لا أريد أن أقف وأتفرج على حثالة البشر يتوددون إلى زوجتي..».

انفجرت تقول: «زوجتك؟ أنا لست زوجتك..! أنا..».

ولم تستطع أن تكمل جملتها لأن رونان أمسك بيدها اليسرى ورفعها حتى أخذ «الخاتم» الذهبي العريض الذي وضعه في إصبعها منذ أكثر من شهر، يلمع في ضوء مصباح الشارع.

ـ إنك تلبسين خاتمي.

قال ذلك بثقة بالغة بالنفس، دمرت سيطرتها على نفسها. فهبّت في وجهه قائلة: «إنه دمغة التملك التي دمغتني بها..».

ونزعت الخاتم من إصبعها وأمسكت به مضيفة: «إنه ليس خاتم زواج.. دليل حب وعهود. إنه أداة للتعذيب، وطوق العبيد وضعته في رقبتي. شأنك في ذلك شأن المستبدين القساة الذين لا يعرفون سوى التملك والتدمير».

ودفعته إليه بعنف فكاد يصيب وجهه: «خذ! لن ألبسه بعد ذلك لأنه يلوّثني!».

لم يحرك رونان ساكناً ليأخذ الخاتم منها، ولكنه أخذ ينظر إليها بثبات وقد تحولت عيناه إلى قطعتين من حجر.

ـ لا تريده؟ حسناً سأريك رأيي فيه!

واستدارت، لتواجه قناة الريّ التي تمرّ بمحاذاة موقف السيارات، وقذفت الخاتم في مياهها التي بدت سوداء مخيفة في ضوء القمر. ثم راحت تنظر إليه يتقلب في الجوّ قبل أن يندفع ساقطاً بعنف نحو سطح الماء المصقول كالمرآة. ولكن عندما سمعت صوت ارتطامه بالماء شعرت بالألم وكأن يداً وحشية اعتصرت قلبها بقسوة.

مضت لحظة مفزعة ظنت أثناءها أن رونان سيعاقبها بعنف على ما فعلته. فقد ازداد توتر كل عضلة في جسمه، وتقبضت يداه وهو ينظر في عينيها بعينين ملتهبتين. فاستجمعت ليلي شجاعتها لمواجهة الانفجار الذي

كان على وشك أن يحدث.

ـ ربما كان هذا للأفضل، أو ربما للأسوأ.

تمتم ذلك بغموض، تاركاً ليلي عاجزة عن فك رموز الكلمات الخفية، فقالت غاضبة: «بل للأسوأ، وإن كنت لا أدري كيف يعقل أن تسوء الأمور أكثر مما هي عليه الآن».

ـ تريدين الذهاب إلى البيت؟

أدهشها هذا السؤال إلى حد مضت ثوانٍ لم تستطع فيها أن تستوعبه.

البيت.. ذاك البناء الذي سيجمعها مع رونان في سكون الليل.. حيث ستذهب إلى فراشها وهي تعلم بأنه على مقربة منها، كما كان يحصل في كل ليلة من الأسبوع المنصرم، فتسمع أصوات تحركاته وهو يستعد للنوم.

وفجأة، بدت لها الأصوات المجهولة في النادي أفضل كثيراً.

ـ ظننتك جئت إلى هنا في عمل.

شعرت بالزهو لعدم الاكتراث الذي تمكنت من إظهاره، مسرورة لأنها لم تكشف عن المشاعر التي كانت تساورها فعلاً.

ـ لا أريد أن أعيقك. على كل حال، ما زال الليل في أوله.

ـ أتريدين متابعة السهر؟

ـ لا أريد أن أعود.

تجنبت بحذر النطق بكلمة (البيت).

ـ ومن يعلم؟ بما أنني لم أعد مدموغة بطابع ملكيتك..

لوّحت بشكل استفزازي بيدها الخالية من الخاتم تحت أنفه، مركزة نظراتها على شرارة الغضب التي كانت تتطاير من عينيه.

ـ لعلني أتعرف إلى شخص يجعلني أقضي وقتاً طيباً!

كان المكان الثاني الذي اصطحبها إليه مختلفاً عن النادي الذي غادراه للتو، وشعرت ليلي بفرحة كبيرة لرؤية نفسها آمنة داخل هذا المقهى الصغير القديم الطراز، حيث الجوّ مريح هادىء بعكس جوّ النادي الصاخب والمثير.

وصلا إلى المقهى بعد رحلة قصيرة في السيارة، لم ينطق خلالها رونان بكلمة واحدة.

سألها باختصار عندما أصبحت داخل المقهى: «أتريدين شراباً؟».

ـ مياهاً معدنية، من فضلك.

كان عليها أن تشرب شيئاً لتهدىء أعصابها بعد تلك الرحلة المفزعة في الشوارع المظلمة. لكنها رفضت أن تدع رونان يشعر بالانزعاج الذي سببه لها.

كان رونان يقف أمام المقصف عندما شعرت بيد تلمسها برفق. فالتفتت بحدة، لترى امرأة شابة طويلة القامة شعرها أسود ومفاتنها بارزة، فابتسمت لها بتوتر قائلة: «عفواً، ولكن هل أنت مع السيد غيرين؟».

عندما أومأت ليلي بحيرة، بدت ابتسامة الفتاة أكثر ثقة: «اسمي «آلي غوردون». يدير والداي هذا المكان».

قالت ليلي: «يدهشني أن يريد أبوك البيع».

ـ آه، إنه لا يريد البيع، ولكنه مرغم على ذلك.

وبدا الأسى في عينيها الزرقاوين الواسعتين.

ـ أردت التحدث إليك عن هذا الموضوع. إن أبي مريض. لقد اكتشفنا لتوّنا أنه يعاني من «الألزهايمر»، ويحتاج إلى رعاية دائمة، ولا تستطيع أمي رعايته وإدارة هذا المكان في آن معاً. إن المال ينقصنا.

كان رونان عائداً فتمتمت ليلي بسرعة: «سأرى ما بإمكاني فعله» قبل أن تذهب «آلي» مسرعة.

ماذا ستفعل الآن؟ كيف ستقنع رونان بأن يشتري المقهى بثمن يفي بمتطلبات أسرة غوردون؟

ـ حسناً، ما رأيك؟

قطع سؤال رونان غير المتوقع عليها أفكارها وجعلها تقول بعفوية:

ـ عليك أن تشتري هذا المكان.

فأجاب ساخراً:

ـ ألهذه القناعة المفاجئة علاقة بما قالته لك الآنسة غوردون؟ آه، نعم. لقد رأيتها تسرع مبتعدة عنك، ألا تخشين أن آخذ منها كل شيء ثم أستنزفها حتى الجفاف؟

كان لهب الغضب في عينيه يتلاءم مع الابتسامة المظلمة التي أنبأتها بأنه واعٍ تماماً للارتباك الذي سببه لها سؤاله الساخر. وضحك متجهماً بصوت خافت وهو يتابع قائلاً: «اسمعي، سأدعك تحضرين المناقشات، وإن رأيت أنني أخدعها، فكوني صريحة معي.. لمَ هذا الارتياب يا حبيبتي؟ أعدك.. بأن أشطب البنود التي لا تعجبك عن عقد البيع».

ـ لكنني لا أعرف شيئاً عن..

ـ أنت لست غبية يا ليلي، وتميزين بين العدل والظلم. فكري فقط في ما تتمنينه لديفي، وطبّقيه هنا.

(فكري في ما تتمنينه لديفي).

بدا لها وكأن صدى هذه الكلمات يتردد في أنحاء القاعة، حاملاً في طياته معانٍ خفية.

ـ رونان..؟

لكنه تركها وتوجه إلى المقصف حيث كانت تقف غوردون. ولوت ليلي يديها معاً في حجرها وقد ملأتها الرهبة وهي تفكر في الدور الذي ستلعبه في مستقبل هذه الفتاة وأسرتها.

ولكن من اللحظة التي دعا فيها رونان الفتاة إلى مائدتهما، وقدم لها شراباً قبل أن يبدأ في تقديم عرضه، أدركت ليلي أن ما من داعٍ للخوف. فلم يكن في كل ما قاله ما يمكنها الاعتراض عليه، على الرغم من عدم خبرتها في المعاملات التجارية.

ـ حسناً؟

سألها رونان بعد أن انتهت المفاوضات، وتركتهما آلي وحدهما وعلى وجهها ابتسامة واسعة مبتهجة.

ـ أليس لديك ما تقولينه؟ لم أتوقع أن تلزمي الصمت.

ـ ليس لدي ما أنتقده، إنك أكثر كرماً مما كنت أتصور.

اعترفت ليلي بذلك صادقة فقال: «هذا ما حصل عليه ديفي».

وقطب جبينه عندما نظرت إليه بارتياب: «آه، بحق الله، يا ليلي! هل اعتقدت حقاً أنني قدمت لهذه الفتاة عرضاً أفضل مما قدمته لأخيك؟ فقط لأنها أنثى رائعة الجمال ولها قوام ڤينوس».

ـ لـ.. لا.

لم تشعر بالارتياح وهي تدرك أن الشعور الذي أخرس لسانها لم يكن سببه تعليقاته عن أخيها. بل الغيرة المرة من وصفه للفتاة الأخرى بالرائعة الجمال والمثيرة.

حاولت، بسرعة، أن تغير الموضوع قائلة: «أدهشتني الليلة في ذلك النادي إذ لم أحسبك قط معجباً بموسيقى الروك».

ـ أنا أحب كافة أنواع الموسيقى.

ـ أتحب الاستماع إليها فقط أم أنك تؤلف قطعاً موسيقية أيضاً؟ هل تعزف على آلة موسيقية؟

ـ يا ليت! لكنها مهارة لم أستطع اكتسابها.

ألقت ليلي رأسها إلى الخلف وقد اتسعت عيناها وارتسمت ابتسامة على شفتيها الممتلئتين.

ـ رونان غيرين العظيم يعترف بالفشل! إنك تدهشني فعلاً.

ـ جيد.

وتراقصت عيناه، وأضواء الصالة تضفي عليهما بريقاً ذهبياً.

ـ أعرف أن لديك تصورات خيالية عني وأحب أن أحررك منها.

مست كلماته وتراً حساساً وهو يشير إلى ملاحظة كان قد أدلى بها عن ديفي منذ لحظات، مدمراً بذلك الوئام الذي نعما به.

ـ أتقصد مسألة أنك لم تحبيني قط؟ آه، لا تقلق! فأنا لم أعد أكافح في سبيل ذلك الوهم، فأنت حررتني منه تماماً.

فرد عليها رونان بحدة: «وهل ادعيت يوماً أنني أحببتك؟».

هل فعل ذلك؟ وعادت بذاكرتها إلى الأسابيع القصيرة التي سبقت زواجها. فقد قال لها (أريد أن تكوني لي، عليك أن تتزوجيني!) ولكنه لم ينطق قط كلمة عن الحب.

وعلى غرار أي فتاة، أعمت المشاعر قلبها فضاعت في أحلام السعادة والهناء. وسدّت حاجتها إلى تلك الكلمات وهي توهم نفسها بالاعتقاد بأنها سمعتها منه فعلاً. وقالت تعترف ببطء: «لا، لا، لم تفعل».

أومأ راضياً بعبوس إذ أصبحت الدعوة واضحة ولم يعد ثمة مجال للنقاش.

ـ والآن..

لكن ليلي لم تستطع الاحتمال أكثر من ذلك. لن تجلس مكتوفة اليدين وهي تعي مبلغ تفاهة ما كانت تعنيه بالنسبة إليه، واستغلاله لها بأنانية بالغة لأجل هدفه القاسي.

فهبت واقفة دافعة كرسيها إلى الخلف، محدثة بذلك صريراً مزعجاً: «أنا متعبة، وأريد أن أذهب إلى البيت».

لكن «منزل بيلڤدير» لم يعد في نظرها بيتاً. فمنذ اصطحبها رونان إليه يوم زفافهما، فقد معناه. ولم يعد يمثل لها الملاذ الدافىء وها هي تنظر إليه وكأنه وهم من نسج يدي رونان.

ـ هل تشعرين بالبرد؟

وكان رونان قد رأى رجفة الحزن التي تملكتها.

ـ قليلاً.. لقد برّد المطر الجو.

على الرغم من أن انهمار الأمطار صحبه صقيع، كانت ليلي تعلم أن إحساسها بالبرد هو نفساني أكثر منه جسدي.

ـ سأشعل النار حتى تدفأ الغرفة بسرعة.

لم تستطع احتمال الرعشة التي سرت في كافة أنحاء جسمها.

ـ لا حاجة لذلك.

ـ لن يستغرق ذلك طويلاً..

زاد إصراره من توتر أعصابها، ففي كل ليلة كانت تصعد إلى غرفتها ساعة تشاء، من دون تعليق أو احتجاج. لكنه الآن يحاول أن يبقيها هنا ليطيل السهرة.

ـ قلت لا حاجة لذلك، إنني متعبة وسأكون أكثر دفئاً في السرير.

ـ وحدك؟

ـ طبعاً وحدي!

لكن جسدها الغادر أخذ يخزها مستعيداً ذكرى الأحاسيس التي ساورتها وروونان معها.

ـ لماذا أنت حريصة على الصعود إلى غرفة نومك فجأة؟

ضاقت عيناه وهو يدور بهما في أنحاء الغرفة وكأنه يبحث عن شيء ما: «هل عاد ديڤي؟ هل رأيت..؟».

ـ ديڤي؟ لا!

ارتعش صوتها وهي تنطق بهذه الكلمات. لقد كادت تنسى هذه الليلة مسألة ديڤي، وترصّد روونان له بالانتقام. وللحظات قليلة تملكتها الرغبة في أن تعود علاقتها مع روونان إلى سابق عهدها، خالية من التعقيدات. وأثناء السهرة، غالباً ما كانت ترفع عينيها لتجد عينيه مسمرتين عليها بشكل غريب. وكانت في نظراته المحرقة، الحدّة في المشاعر التي لم يحاول قط أن يخفيها.

حتى عندما غضب منها بقي ذلك التيار الكهربائي يقدح شرراً بينهما، جامعاً إياهما معاً بمغناطيسية هي أقوى من أن تنكرها.

ربما حري بها أن تستغل ذلك الشعور لمساعدة أخيها.

ـ روونان.. أرجوك.. بالنسبة إلى ديڤي.

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً عن أخيك المجرم.

قال روونان ذلك وقد استشاط غضباً ولكنها أرغمت نفسها على أن تلح عليه رغم الشراسة في نظراته إليها، والوعيد الذي تخلل كلماته.

ـ ولكن عليك أن تصغي إليّ. لماذا لا تستعيد هذا المنزل أو تدعني أبيعه حتى أعطيك ثمنه مقابل ما يدين لك أخي به؟

ـ فتخسرين بيتك بعد أن تخليت عن شقتك، وأين ستعيشين عندها؟

ـ سأتدبر أمري.

ركزت ليلي انتباهها على ردة فعل روونان وقد أدركت بأن اهتمامه برفاهيتها وسعادتها كان صادقاً وغير متحفظ، مما جعلها تشعر بقلق غريب.

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً عن الموضوع. ولا أريد مناقشته بعد اليوم، أريد أن أنسى كل شيء عن ديڤي وآثامه، هذه الليلة.. أريد أن أتحدث عنا، نحن الاثنين.

ـ سبق أن قلت لك إنه ليس من شيء يجمع بيننا.

ولكنها أدركت وهي تتكلم، مدى كذبها. فما قالته مجرد درع هش ضد تأثيره على عقلها وقلبها، ولو استطاع روونان أن يرى مدى هشاشة درعها هذا لأزاحه جانباً بحركة ازدراء من يده أو بالكلمات المناسبة.

ـ بل.. فقط إن أنت سمحت بذلك.

أحاطتها رقة صوته كالبخور العطري الدافىء مما جعلها تحاول مقاومة تأثيرها المغري بينما هو يتابع:

ـ ونحن هنا معاً...

فقاطعته بقولها: «إنها مجرد صدفة! فالسبب الوحيد الذي جمعنا معنا هنا...».

ولم تجرؤ على أن تذكر ديڤي مرة أخرى حتى لا تجازف بأن تعرّض السلام الضئيل الذي حل بينهما، للزوال.

ـ فسبب وجودك هنا يجعل ذلك مستحيلاً.

ـ ليس من المنطق أن ننكر.

ـ نحن.. ننكر.. أنا لست!

لم تستطع أن توضح بالكلمات ما كانت تخشى أنه يعنيه.

ـ لقد عدت تكذبين على نفسك، يا عزيزتي.

لم يحرك روونان ساكناً، ولم يتقدم خطوة نحوها. بل ساد صمت عميق بينهما وكأنه السكون الذي يسبق العاصفة.. وتوقعت أن تسمع في أي لحظة

هزيم الرعد وترى لمعان البرق. وأدركت أن حياتها كلها على المحك.

ـ لا شيء يقف بيننا سوى ذلك الرجل الذي لن نذكر اسمه، وهو ليس هنا الآن، فما الذي يمنعنا من قضاء بقية السهرة معاً؟

ما يمنعنا هو أنني أحبك وأنت لا تحبني.

كانت واعية تماماً لضخامة بنيته وهو يقف بجانبها. فكل عصب فيها تنبه إلى رائحة عطره، وقد سقط شعره اللامع على جبينه فوق عينيه المتألقتين. كان من المستحيل ألاّ تتذكر البهجة التي شعرت بها عندما رقصا معاً، وتلك السعادة التي كانت تشعر بها كلما لمسها.

لم تقل رغبتها في هذا الرجل عن ليلة عرسها مثقال ذرة، فيومها، كانت لا تزال بريئة جاهلة بكل ما له علاقة بالحب، وكل ما جرى بينهما مذاك الحين، لم يغيّر شيئاً.

عندما سمعت هانا عن هجر رونان لها قالت لها ببساطة: «لا عليك، ثمة الكثيرون سواه».

لكنها لم تكن تريد شخصاً آخر. لم تكن تريد إلاه.

(ما الذي يمنعنا من قضاء بقية السهرة معاً).

وأخذت نفساً عميقاً، وهي تعلم أن ليس لسؤاله هذا سوى جواب واحد: «لا شيء».

سمعت صوتها يقول ذلك قبل أن تكتمل هذه الفكرة في رأسها.

ـ لا شيء؟

ردد رونان كلامها بنبرة مختلفة تماماً. ولكنه رغم ذلك لم يحرك ساكناً، إذ كانت ليلي واثقة من أنه يبادلها الإحساس بالارتباك. فحركة واحدة خاطئة وتهرب إلى غرفتها الآمنة كطائر مذعور رأى قطاً جائعاً.

ولكن كل لحظة تمكثها هنا، تزيد من شوقها إليه وهذا الشوق ينهشها الآن من الأعماق. حتى أنها شعرت بالمسافة الضئيلة بينهما، وكأنها هوّة بالغة الاتساع.

ـ أتعرفين ما تقولين؟

أتعرف حقاً؟ لم تستطع أن تفكر.. كانت كتلة من المشاعر المخضّبة بالشوق، إنها متلهفة إليه وخائفة من تملّكه لها.

ـ أظن أنه من الأفضل أن أغادر الغرفة.

قال ذلك وهو يتوجه نحو الباب. ولكنها هتفت، من دون أن تعي ما تقوله: «كلا!».

ـ أتقصدين أن وجودي غير مرغوب فيه أم أنك تريدين أن أذهب؟

ـ أنا..

شعرت بغصة في حلقها هددتها بالاختناق، حتى أصبحت عاجزة عن النطق بكلمة. ولكنها كانت مضطرة إلى أن تتكلم فإن هو خرج من الباب فقد تموت: «أنا..».

ورفعت يديها بيأس أمام وجهها بإشارة تنم عن الخوف، والدفاع:

ـ ليلي..

وتقدم رونان نحوها يمسك بيديها ويخفضهما إلى أسفل بسهولة جعلت مقاومتها له عبثاً.. ورفعت إليه وجهاً شاحباً منهكاً وعينين ذهبيتين واسعتين متألقتين، فقال بخشونة: «أنا لا أحب هذه المشاعر أكثر مما تحبينها أنت ولكن ليس بيدنا حيلة، فالنيران مشتعلة يا ليلي شئنا أم أبينا، وتتأجج كلما اجتمعنا معاً، ومن الجنون أن نتجاهلها أو نحاول كبحها، لأنها تفتات من ذاتها وتزداد حدة أكثر مما نتصور».

ـ أعرف.. هذا.

ألم يسبق أن حاولت تجاهلها هي نفسها، فأخذت تزداد تجذراً في أعماقها مع كل نفس تتنفسه، وازداد الشوق مع كل دقيقة تمضيها في صحبة رونان؟ لكن تلهفها إليها يغذيه الحب الذي تكنه له، بينما رغبته هي مجرد رغبة بحتة خالية من المشاعر كما اعترف بنفسه منذ فترة.

ـ ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل؟

ـ يمكننا أن نتوقف عن مقاومتها، يا جميلتي ليلي. أن نستسلم إلى ما

نشعر به، فنطلق له العنان حتى يدمرنا، ثم ندعو من أعماقنا بأن يخف، مع الوقت، ويتبدّد.

أخذ قلبها يخفق بعنف إلى حد أن وقعه في أذنيها كان أشبه بالرعد.

فراحت تطلق أصوات متقطعة: «سأريك..».

كان وجهه قريباً من وجهها إلى حد خطر، وهاتان العينان القاتمتان العميقتان تراقبانها بعنف وهي تهتف محتجة.

ـ ليلي، كلمة واحدة منك هي (نعم) أم (لا) تكفي. ولكنني أريد أن أسمعها، أخبريني هل تريدين هذا أم..؟

لكن صبرها نفد وقد خرجت مشاعرها عن السيطرة، وشعرت أنها ستموت الآن فقالت بصوت خافت: «نعم».

لكنها خافت ألا يكون سمعها جيداً فكررت بلهفة: «نعم، نعم، جوابي هو نعم».

***

٨ ـ الأمان الضائع

مضى وقت طويل طويل قبل أن تعود إلى واقعها. ولكن وهي تستفيق من بين هذه الأمواج الحارة التي اجتاحت كيانها ومشاعرها، حاولت جاهدة أن تتعلق بضباب الأحاسيس التي غلفت أفكارها، ولم تشأ أن تواجه حقيقة أن البركان الذي تفجّر بينهما كان كل شيء وأن لا مشاعر أخرى تبنى عليه.

لم يكن ذلك يعني شيئاً، فعاجلاً أم آجلاً ستنتهي هذه الملحمة ولن يبقى لها منها سوى الذكريات. لكنها، حالياً، لن تشغل بالها بهذه المسألة لأنها حصلت على كل ما تريده، وستواجه الحقائق في حينها، وإلى ذلك الوقت، ستتظاهر وكأن شيئاً لم يكن.

***

أخذت ليلي تتقلب في فراشها وهي تتثاءب وتتمطى، ثم تسمرت مكانها من دون حراك.

وإذ لاحظت أن الشمس تتوهج من خلال الستائر نظرت إلى الساعة بذعر.

ـ العاشرة والنصف! ولكن هذا غير ممكن.

كانت تحدق في ساعتها، مذهولة عندما انفتح الباب بعنف ودخل رونان

www.elromancia.com

الغرفة يحمل صينية بين يديه.

- صباح الخير، يا صاحبة عيد المولد، هوذا الإفطار.

- الإفطار.. لكنني لا أستطيع.. أنا..

- عودي إلى الفراش!

وضع الصينية على منضدة الزينة ثم أمسك بها بحزم عندما ألقت عنها اللحاف وهمت بالنهوض من فراشها.

- رونان، لا أستطيع. انظر إلى الساعة. كان على أن أذهب إلى العمل منذ ساعات عليّ أن..

وسكتت مرة أخرى عندما هز رأسه نفياً.

- ليس عليك أن تفعلي شيئاً سوى العودة إلى فراشك وامتاع نفسك.

وعندما حاولت أن تتلوى لتخلص نفسها من تلك اليد الحازمة على كتفها أضاف قائلاً: «اثبتي مكانك، يا امرأة! لا أحد ينتظرك. فلقد اتصلت بهم وأخبرتهم بأنك لن تذهبي إلى العمل اليوم».

- ماذا؟

وتملكها الذهول وعادت تستند إلى الوسائد وهي تحدق إليه بارتباك واضح: «ولكن لماذا؟».

وتنبهت فجأة إلى ما قاله رونان حين دخل الغرفة فتأكدت من أن ما سمعته صحيح.

- كل شخص يأخذ يوم عطلة في عيد مولده. وفضلاً عن ذلك، وضعت برنامجاً لهذا اليوم، لا يشمل مجموعة من بائعي الزهور.

- أووه!

أظهرت ليلي بذلك اشمئزازاً ضاحكاً وعادت لتسأله وذهنها مشوش:

- كيف علمت أنه عيد مولدي؟

وضع الصينية على حجرها بقوة دلت على أن مزاجه قد تغيّر إلى الأسوأ، وقال بصوت متوتر: «كنت حاضراً حين قدمنا طلباً للحصول على رخصة الزواج، وكان علينا، حينذاك، أن نذكر تاريخ مولدينا».

هذا صحيح. وتنهدت ليلي وهي تمدّ يدها لتثبّت فنجان القهوة الذي كاد ينقلب عندما وضع الصينية بخشونة. كان عليها أن تتذكر ذلك لكن إدراكها بأن زواجها لم يكن مهماً بالنسبة إليه جعلها لا تتوقع أن يتذكر أي جزء منه، خاصة التفاصيل الصغيرة مثل تاريخ عيد مولدها.

قال لها بلؤم وهو يلقي إليها بمجموعة من البطاقات الملونة المهنئة بعيدها: «إنها لك.. لا شيء من ديڤي، لقد تفحصتها».

راحت ليلي تجمعها وهي تفكر بتعاسة في أنه لو وجد بطاقة من ديڤي لتفحص دمغة البريد واتصل بمخبره الخاص ليعلمه عن مكان ديڤي. وشعرت ليلي بالمرارة وهي تدرك أنه، حتى في هذا اليوم، لم ينس ثأره من أخيها.

فقالت له: «لم نكن نعير أعياد مولدنا اهتماماً».

والحقيقة هي أن والديها لم يعيشا ليحضرا عيد مولد ديڤي الحادي عشر. وبعد وفاتهما لم تسمح لها أوضاعها المادية بشراء الهدايا أو الاحتفال بالمناسبات.

لقد اعتادت روزالي أن تقول: «على كل شخص أن يشعر بأهميته وإن ليوم واحد في السنة».

كانت ليلي تهم بفتح إحدى البطاقات، فلم تلاحظ صمته المطبق إلى أن طالت مدته. وإذ شعرت بانزعاج للتوتر المفاجيء الذي ساد حولها، رفعت رأسها وهي تقطب جبينها متسائلة: «روزالي؟».

سألته قلقة للتغير الذي أصابه وهي ترى الدفء في عينيه يتحوّل إلى كآبة.

- فتاة كنت.. أعرفها.

وكان صوته يوازي عينيه كآبة.

- أهي فتاة مميزة بالنسبة إليك؟

بدا جلياً أنه كان يحبها، وذلك واضح. فالطريقة التي ذكر فيها اسمها أزالت شكوكها.

وقال هو باختصار: «مميزة جداً..».

كان واضحاً أنه لا يريد أن يسهب في جوابه، ولم تجرؤ ليلي على الضغط عليه. لعل روزالي هذه كانت حبيبة سابقة، وهذا يفسر عدم رغبته بالحديث عنها إلا أن مجرد الظن في أنه قد أحب تلك المرأة أكثر مما أحبها هي، جعل عينيها تغرورقان بدموع محرقة حاولت أن تغالبها بشدة.

ـ تناولي فطورك قبل أن يبرد.

جاهدت ليلي لتذعن لطلبه، لكنها غصت بالطعام فلم تستطع ابتلاعه.

ما الذي حدث بين رونان وروزالي تلك؟ أكانت هي من أنهى علاقتهما؟ إذ يبدو أنه يكنّ لها مشاعر قوية.. أم..

صعقتها هذه الفكرة المزعجة فلم تستطع التنفس. أترى روزالي هذه، كانت هي ضحية كراهية رونان السوداء لديفي؟ أيعقل أنه تخلى عن الفتاة الأخرى ليتزوجها هي، ليلي؟ أيعقل أنه عند انتهاء زواجهما المهزلة هذا سيحرر نفسه منها ليعود إلى حبيبته السابقة؟

وقطع صوت رونان عليها أفكارها.

ـ إنك تحدقين في تلك البطاقة منذ أكثر من دقيقة.

فقالت وهي مجفلة: «كنت.. أقرأ الشعر».

قالت ذلك وهي تدرك بأنه لم يقتنع بتفسيرها من خلال النظرة الساخرة التي ألقاها على أبيات الشعر الأربعة التافهة تلك. ولكي تصرف ذهنها عنه، تناولت البطاقة الثانية.

كانت هذه من رونان نفسه وقد ظهر عليها خطه المعبر عن قوة ثقته بنفسه. فأخذ قلبها يخفق بعنف وهي تفتح المغلف.

مضت ثانيتان غامت أثناءهما عيناها فلم تستطع تركيزهما على الصورة التي على البطاقة، ولكنها استطاعت أخيراً أن تميّز نسخة عن لوحة سبق أن قالت له إنها تحبها.

ـ إنها رائعة.. شكراً.

ماذا كنت تنتظرين، يا غبية؟ أن يشتري لك بطاقة شاعرية مزخرفة

تقول: «إلى زوجتي الحبيبة مع كل حبي؟».

فبالرغم من عيوب رونان، إلا أنه ليس منافقاً ليكذب بهذا الشكل.

ـ والآن، ماذا تحبين أن تفعلي اليوم؟

ـ ظننت أن لديك برنامجاً.

ـ وضعت برنامجاً للسهرة. خطر لي أنك تريدين أن تختاري بنفسك كيف ستمضين نهارك؟

ـ هل يمكننا الخروج إلى البراري؟

ـ أينما شئت.

ونزل عن السرير، آخذاً معه البطاقات المطروحة.

ـ ما رأيك لو تفكرين في الأمر بينما ترتدين ملابسك ثم تخبريني بما استقر عليه رأيك؟ فرغباتك اليوم أوامر.

ليتها تستطيع فقط أن تصدق هذا! ليتها تستطيع أن تخبر رونان بما يدور في رأسها وقلبها! لكنه، لو لم يذكر اسم «روزالي» لأفضت له بمكنونات قلبها.

فمجرد التفكير في ردة فعله إن أخبرته أن ما تتمناه أكثر من أي شيء، هو أن يغدق عليها حنانه، ويغرقها بحبه إلى حد ينسيها روزالي تلك.. أو ديفي، أو أي شيء آخر.

اغتسلت وارتدت ثوباً أخضر منقوشاً بالأزهار وفتحت باب غرفتها لتنزل إلى الطابق السفلي وإذا بجرس التليفون يرن فنزلت السلم مسرعة واختطفت السماعة في الوقت الذي ظهر فيه رونان عند عتبة الباب.

ـ آلو؟

وخفق قلبها عندما لفظ صوت مألوف للغاية اسمها.

ـ آه، ديفـ....

فعادت تصحح قولها بحذر ورونان يراقبها بحدة: «ديزي، ما أجمل أن أسمع صوتك!».

فردّ عليها أخوها بحيرة واضحة: «ديزي؟ ليلي، ما الذي..؟».

ـ إنها «ديزي مارتنت» يا رونان.

وتعمدت نطق الاسم بوضوح: «إنها صديقة من أيام المدرسة».

فقال ديڤي بصوت يائس مزق قلبها: «ألا يزال عندك؟ أهذا ما تحاولين قوله؟».

فأجابت متصنعة المرح: «نعم. لا بد أن ذلك كان في السنة الماضية.. كلا!».

صرخت برعب وقد فوجئت برونان يختطف السماعة من يدها. لا بد أن نظراتها أو لهجتها هي التي كشفت أمرها. أما رونان فأخذ يحدق في السماعة وكأنه يعتقد أنه ديڤي نفسه.

ـ لا، يا رونان!

تمنّى رونان لو كان بوسعه أن يلوي عنق ديڤي، فهذا الوغد يعلم أن اليوم هو عيد مولد ليلي، وكان حري به أن يراعي شعورها ولو مرة واحدة. لم يُخفَ عليه شحوبها المفاجيء حين سمعت صوته، ودموعها التي تلألأت في عينيها المتألقتين، فكانت خير برهان على الكدر الذي شعرت به. لاتستحق ليلى أخاً مثله، كما أنه لا يستحق أختاً مثلها.

أخذ رونان يصر على أسنانه، محاولاً أن يكبح غضبه البالغ، فمنظر ليلي لوى قلبه بعنف، وذكره بما شعر به يوماً تجاه ديڤي كورنويل. فقد أعجب بهذا الذي لا يستحق أن يذكر اسمه، وشعر بالعطف نحوه وصمم على أن يزيل من أمامه كل العوائق، وإذا بكل شيء يرتد عليه شؤماً.

ولكن هل من الممكن أن تجد تفسيراً لما حدث؟ لو أن ذلك الأحمق يأتي إلى البيت، لتوصلا إلى تسوية بشأن هذا الوضع الجهنمي ولانتهى الأمر. كان عليه أن يخبره..

ولكن عندما نظر إلى ليلي أزالت تعابير وجهها كل فكرة عقلانية:

ـ كورنويل!

أرسل صوته رجفة في جسم ليلي، وتصورت شعور ديڤي وهو يسمعه:

ـ إلى أي ناحية ذهب..!

ـ وماذا توقعت غير ذلك؟

كان صوت ليلي متوتراً وساقاها ترتجفان، فمدت يدها إلى حاجز السلم تستند إليه.

ـ ماذا حدث يا رونان؟

تابعت كلامها وهي تراه يضع السماعة بعنف وقد أظلم وجهه: «هل أفلتت فريستك منك مرة أخرى؟».

وتنبهت إلى النظرة الشرسة التي بدت في عينيه وهو يلتفت إليها، وكأنه أشبه بنمر جائع تملكه الإحباط بعد إفلات فريسته منه.

ـ هل كنت تأمل أن تشغله بالحديث حتى يصل إليه المخبر السري الذي استأجرته لاقتفاء أثره؟ أتراك وضعت آلة للتنصت على هاتفي أم أنهم يسجلون لك كل مخابراتي؟

فرد عليها بحدة: «لا تكوني غبية، أنا لا أفعل شيئاً كهذا».

ـ حقاً؟ حسناً، إنني لا أستخف بقدراتك، فحين يتعلق الأمر بديڤي، تأكلك الكراهية فلا تعود تفكر بشكل مستقيم. ولكن يقال إن الانتقام يرتد عليك فتصبح نكداً فظاً على خلاف ما تتوقع.

ـ اسأليني أنا عن ذلك.

قال ذلك بصوت خافت غامض لم تستطع تفسيره.

وأخذ يتساءل متأملاً. ما الذي حدث لقوة قناعته التي ساقته منذ البداية؟ يبدو أنه أضاع ذلك في مكان ما أثناء الطريق، وحل محله شعور بأن الأمور لم تكن بالوضوح الذي كان يظنه.

ـ أراك تنظرين إلي وكأنني شخص مريع، خاصة في ما يتعلق بأخيك الغالي. هل هذا يعني أنك ألغيت رحلة هذا اليوم؟

ـ هذا صحيح.

ولكن ما إن سمعت ليلي نفسها تتلفظ بهذه الكلمات، حتى اضطرت لمراجعة نفسها. هل هو حقاً من النذالة والشّر كما جعلها ديڤي تعتقد؟ وبالرغم عنها، عادت بالذاكرة إلى تلك الليلة في المقهى عندما أبدت رأيها في

الشروط التي قدمها إلى آلي غوردون، فقال: (إنها شبيهة بما حصل عليه ديفي). لكنها حينذاك، لم تهتم بما قاله إذ أن عنف علاقتهما محا من ذهنها كل الأفكار الأخرى. وها هي الآن تجد نفسها مرغمة على أن تفكر فيها بارتباك، فقالت له ببطء: «لم تشتر المكان الآخر».

قطب رونان جبينه بحيرة لتغييرها الموضوع فجأة، لكنه عاد بعد ثانيتين فأدرك ما الذي تتحدث عنه.

ـ النادي؟ ليس فيه شيء غير عادي.

مع مرور الوقت أصبحت ماهرة في قراءة ملامحه، فأدركت أن تعليقاته العفوية تخفي أشياء لم يقلها، ولا يريد أن يقولها.

ـ وهل كان في ديفي شيء غير عادي؟

بدت عينا رونان غائمة عاصفة، تكشف أكثر مما يريد، فأجابها برزانة:

ـ نعم، كان في ديفي شيء غير عادي.

ـ أخبرني..

فقال بغضب: «ليس الآن! ربما تفسدين عيد مولدك بالحديث عن أخيك. ولكنني، بصراحة، سئمت من سماع اسمه. كان من المفروض أن يكون هذا النهار مميزاً بالنسبة إليك. ولكنك أوضحت أنك لا تريدين الخروج، وتفضلين الموت على الذهاب إلى أي مكان معي. ولكن ألن تقبلي هذا أيضاً؟».

ولم تدرك ليلي إلا بعدما رفع يده اليسرى أنه كان يحمل علبة صغيرة مربعة ملفوفة بورقة فضية رائعة الجمال.

ـ ما هذا؟

لم تقوَ على كبح فضولها.

ـ هدية.

قال ذلك بشبه ابتسامة جانبية.

ـ لي أنا؟

ـ طبعاً لك. فعادة في أعياد المولد يقوم الأقارب والأصدقاء، والأزواج

أحياناً، بتقديم هدايا لصاحب العيد.

ومدّ يده بالعلبة يغريها بها، مداعباً، وعيناه القاتمتان مسمرتان على وجهها: «ولكن إذا كنت تظنين أن قبولك لها يشبه بيعك لروحك..».

وإذا بها تُصعق ويتملكها الذعر عندما ألقى فجأة بالعلبة في صندوق القمامة فسقطت محدثة صوتاً مكتوماً ينذر بالنحس، وهتفت محتجة بشكل آلي: «رونان! هذا غير معقول!».

لكنه هز كتفيه بلا مبالاة قائلاً: «اشتريته لك، فإن لم تقبليه، فهو..».

ـ آه، بل أقبله!

خرجت هذه الكلمات من فمها قبل أن تفكر في عواقبها. فقد كانت ممتنة لأنه خرج واشترى لها شيئاً.

ـ كنت أعلم أن ما من امرأة تقاوم سحر الهدايا.

تجاهلت السخرية اللاذعة في صوته هذا وهي تستعيد العلبة من صندوق القمامة. لكنها رفعت بصرها بسرعة لتلمح الابتسامة الهازلة التي لم يستطع كتمها وهو ينظر إليها.

وخطر في بالها فجأة أنها كانت هدفاً لخطة بارعة صرفت ذهنها بعناية عن القضية التي بين يديها، وبهذا لا يكون عليه أن يجيب عن أسئلة غريبة.

ولكنها قررت حفاظاً على السلام بينهما، أن تترك الأمور على حالها. عليهما أن يستمتعا بهذا اليوم رغم كل شيء.

فنبذت من ذهنها كل ما يقلقها بينما كانت تمزق الورقة الملفوفة بها العلبة.

ـ آه، يا رونان!

كانت تتوقع زجاجة عطر، أو حلية ثمينة، ولكنها ذهلت حين وجدت كتاباً قديماً مغلفاً بالجلد يتعلق بهندسة الحدائق، ويتضمن رسوماً يدوية رائعة لكل أنواع الأزهار. كانت هذه الهدية من النوع الذي تتمنى شراءه لنفسها لو كان بإمكانها دفع ثمنها.

ـ إنه رائع الجمال.

وتهدّج صوتها. لا بد أنه أمضى وقتاً طويلاً في البحث عن الكتاب، فجاء اختياره له بالغ العناية إلى حد لم تتوقعه قط.

ـ لا أدري كيف أشكرك.

ـ سأفكر في طريقة لتشكريني بها.

وتبخّر شيء من سرور ليلي، فنظرت إليه بحذر، والتقت عيناها بعينيه القاتمتين بشيء من الريبة، فضحك قائلاً: «آه، يا ليلي! كم أنت شفافة. هل هذا هو الشيء الوحيد الذي تظنين أنني أريده منك؟ ثمة أشياء أخرى في الحياة».

فسألته بخشونة: «مثل ماذا؟».

صحيح أن في الحياة أشياء كثيرة، ولكن بدا أن كل ما يريده منها أمر واحد.

ـ ما رأيك لو نعلن الهدنة اليوم وننسى كل شيء عن أخيك، ونستعيد ذكرى الأيام الأولى لتعارفنا.

لكنه يومها، تعمد البحث عنها، بعد أن رسم خطة الانتقام بكل تفاصيلها، بينما هي كانت بريئة ساذجة وفريسة سهلة لإغرائه. كم هي بحاجة إلى تلك الهدنة، وإن ليوم واحد فقط، كما قال. فقضاء أربع وعشرين ساعة معه من دون خصام هي أجمل هدية قد تتلقاها في عيد مولدها.

وعندما لم تجب، اندفع يقول: «ليلي؟».

حثتها نبرة العنف التي نطق بها اسمها، على أن تسرع بالقول: «لا بأس، إنني موافقة».

بعد أن أعلن رونان الهدنة، بذل جهده لإرضائها وتسليتها. وفي المساء بعد أن غيرت ملابسها وارتدت ثوباً مخملياً برونزي اللون يعكس لون عينيها، اصطحبها لتناول العشاء في الخارج.

ولكن الشرخ الصغير الوحيد الذي عكر صفو استمتاعها، ذكرها مكرهة بأن الأمور ليست بالكمال الذي تبدو عليه. فالمطعم الذي اختاره

رونان لم يكن المفضل لديهما في المنطقة. إذ أنه لم يستطع أن يأخذها إلى ذلك المكان حيث عرض عليها الزواج. وعند نهاية الأمسية، التفتت ليلي إليه تقول بصدق: «لم أحظ منذ سنوات بعيد مولد رائع كهذا يا رونان، أشكرك كثيراً، فقد استمتعت حقاً بكل شيء..».

لكنه لم يصغ إليها إذ كان انتباهه متجهاً إلى شيء غير مرئي وراء ظهرها. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة خفية، وأخذت العينان الفولاذيتان تلتمعان.

ـ رونان؟ ماذا...؟

أثار صوت خافت فضولها فالتفتت لترى قالب الحلوى في يدي النادل، تحف به الشموع المشتعلة، فتجمدت رعباً.

وبهر عينيها اللهب الذهبي المتراقص إذ كان قريباً منها إلى حد أنها شعرت بحرارته على جلدها، وسمعت الفحيح الخافت وهسيس النيران، وشمت رائحة الدخان المتصاعد.

ـ لا!

وخنقها الذعر، وأخذت دقات قلبها تتسارع وتصاعدت الدماء إلى وجهها وأخذ رأسها يدور وشعرت بالغثيان.

ـ عيد مولد سعيد، يا ليلي.

في خضم تلك الفوضى، سمعت صوت رونان وكأنه آتٍ من بعيد. ولكنها عجزت عن الحراك أو الإجابة أو حتى الإفصاح عن خوفها.

ـ ليلي؟

كانت عيناها متسعتين جامدتين برعب بالغ، وتصلبت أعضاؤها بفعل الخوف والرفض، ورفعت يدها تغطي فمها الذي كان مفتوحاً بصرخة صامتة. فقد تحول شعاع الشموع الرقيق في رأسها إلى نيران هائجة، تحرق كل ما هو عزيز وغال على قلبها.

ـ لا!

أطلقت صرخة عالية غريبة، بصوتها الذي وتّره الذعر، وذلك بعد ثوانٍ

من الاضطراب.

ـ لا، لا، آه، يا إلهي.. لا! أبعده من هنا.

اخترق صوت هادىء دوّامة الرعب في رأسها وقفز رونان واقفاً وهو يدفع النادل جانباً بيده القوية: «خذ هذا الشيء اللعين من هنا.. الآن».

ووقف بينها وبين اللهب المخيف قامة فارعة قوية، وصدر رحيب.

اختطفتها ذراعان قويتان تواسيانها.

ـ ليلي، حبيبتي، لا بأس عليك. أنت آمنة.. آمنة تماماً.

آمنة، أخذ صدى هذه الكلمة يتردد داخل رأس ليلي في محاكاة مزعجة لصرختها المذعورة.

ولكن حتى خلال الرعب، والذعر وألم الذكريات التي أيقظها منظر اللهب، برز إحساس آخر.. إحساس دمّرها كلياً.

شعرت بموجة من السرور والبهجة في اللحظة التي أخذها فيها رونان بين ذراعيه، إحساس رائع بالأمان هو أشبه بالعودة إلى الديار بعد رحلة طويلة متعبة.

لكن الحقيقة المرة هي أن إحساسها بالأمان بني على أساس زائف، فحركة واحدة خاطئة وتنهار معها علاقتهما الشاخة إلى الحضيض، لأن رونان لا يكن لها الحب بل مجرد رغبة حسية كما قال بوضوح تام.

كان قادراً تماماً على استغلالها لمتعته الخاصة ليرحل بعدها بهدوء من دون أن يؤنبه ضميره. فقد سبق وفعلها مرة، وهي تعلم أنه مستعد تماماً لمعاودة الكرة.

حري بها إذن أن تواجه الخطر الذي هو أكبر من ذاك الذي يحدثه اللهب، فخطر المشاعر التي تتعرض له أسوأ بكثير من أي خطر جسدي، ولهذا لن يمكنها أن تكون آمنة مرة أخرى أبداً بعد اليوم.

***

٩ ـ الأمس يصنع اليوم

ـ أتشعرين بأنك مستعدة للحديث عن ذلك؟

كان قد مضى حوالى الساعة ونصف الساعة منذ قذف بها مرأى الشموع على قالب حلوى عيد مولدها إلى حفرة الخوف السوداء التي لم تستطع أن تصعد منها إلا بعد جهد بالغ. وبقيت أثناء ذلك متشبثة برونان الذي كان صخرة من القوة.

فقد أخرجها من المطعم بعد أن ألقى برزمة من الأوراق المالية على المائدة ثمناً لوجبتهما التي لم يكملاها، واصطحبها إلى سيارته لينطلق بعدها متوجهاً إلى البيت من دون أن ينبس ببنت شفة إلى أن استلقت على الأريكة في غرفة الجلوس وسكب لها كوباً من عصير الليمون.

ـ اشربي هذا.

ـ لا أحب عصير الليمون.

فنظر إليها ساخطاً: «اشربيه!».

فانصاعت لأوامره وراحت ترتشف العصير وهي تنظر إليه يسكب لنفسه كوباً من العصير، ثم تمالك على كرسي أمامها، مادّاً ساقيه الطويلتين أمامه. ولكن بعد أن ارتشف جرعة واحدة من كوبه وضعه جانباً واستقام في جلسته، مشبكاً يديه معاً ومريحاً ذقنه عليهما. وأخذ ينظر إليها متأملاً بحدة وسألها: «أتريدين التحدث عن الموضوع؟».

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ كل شيء. لماذا تصرفت بتلك الطريقة وكأن العالم انتهى فقط

بسبب..

أخفت الحدة في صوته شعوره الحالي. ما كان ليستطيع أبداً أن يصف ما أحس به عند رؤيتها تنهار أمامه، وقد غمر الرعب والحزن عينيها. لقد أراد أن يأخذها بين ذراعيه دون أن يتركها أبداً وأن يعدها بأنه سيجعلها آمنة من الآن وإلى الأبد.

لكن هذا النوع من الوعود لا يصدر إلا عن شخص يحبها وتبادله هي الحب. وفي تلك اللحظة بالذات، لم يكن يعرف ما يشعر به.

- أبسبب تلك الشموع؟

وضعت ليلي كوبها بعنف على المنضدة ودهشت إذ أنه لم يتحول أشلاء.

- نعم، لأن تلك الشموع ذكرتني بأسوأ يوم في حياتي، اليوم الذي ذهبت فيه حياتي بأكملها طعمة للنار. وفقدت كل ما كنت أحبه. اليوم الذي مات فيه والداي حرقاً في بيتهما!

لم يتوقع ما قالته لذا بدت الصدمة عليه وهو يلقي رأسه إلى الخلف بينما عيناها العاصفتان تحملقان فيه وكأنها صفعته على وجهه.

- ماذا حدث؟ هل تشعرين بأنك مستعدة للحديث عن ذلك؟

أنبأها تكراره الواضح لسؤاله السابق بمثل هذه اللهفة، بطبيعة شعوره. فرؤية رونان المتعجرف الناجح الواثق من نفسه ضائعاً لا يجد ما يقوله، حثتها على استجماع شجاعتها.

جلست منتصبة وهي تسوّي خصلات شعرها الأشقر المتشابكة، باحثة عن الكلمات المناسبة.

- كان ذلك ليلة رأس السنة. وكانت الزينة موزعة في كافة أنحاء الصالة، لأننا لا ننزلها إلا عندما تحين الساعة الثانية عشرة ليلاً.. ربما لو كنا..

وتلاشى صوتها وهي تجاهد في استجماع ذكرياتها. وانتظر رونان صامتاً ريثما تستعيد الكلام.

- كان لدينا في غرفة الجلوس، مدفأة قديمة الطراز يعلوها رف خشبي.

وكانت والدتي تحب أن تزينه بالشموع وتنثر بينها القطن، حتى يخال للناظر إليه بأنه أمام مشهد ثلجي. هل تعرف ما أعني؟

ورفعت بصرها إلى رونان لترى إن كان قد فهم قصدها، وإذا بها تتسمر مكانها إزاء الوهج العنيف في عينيه المتفحصتين الساكنتين. كان تركيز مشاعره من القوة بحيث مضت ثانيتان قبل أن يومىء برأسه مجيباً.

- كان ديفي صغير السن، ومفتوناً بالشموع، ويحاول دوماً أن يشعلها بنفسه، إما بالكبريت، وإما بإشعال ورقة من نار المدفأة...

أخذت الذكريات السوداء تخفق في ذهنها كأجنحة قوية، وهي تجاهد في ابتلاع غصة في حلقها. وإذ لاحظ رونان كربها، فضل الانتظار بصمت إلى أن تستعيد سيطرتها على نفسها وتتابع كلامها.

- ليلة رأس السنة، سهرنا جميعاً لنستقبل السنة الجديدة، وبعد أن أرهقنا السهر خلدنا إلى الفراش. ومع أن أبي كان يحرص دوماً على وضع السياج أمام المدفأة قبل أن يصعد للنوم، إلا أنه في تلك الليلة، تطاير بعض الشرر إلى الستائر، أو سقطت بعض الزينة، لم يستطع أحد أن يعرف..

وتوقفت عن الكلام وهزت رأسها بيأس وهي ترفع يدها لتمسح دموعها.

- واحترق المنزل بأجمعه. استيقظت على أبي وهو يخبط على باب غرفة النوم صارخاً لي بأن أنهض من فراشي، وأثناء ذلك كانت غرفة الجلوس قد اشتعلت..

وأظلمت عيناها وهي تتذكر ذلك الإحساس.

- أخرجنا أبي أنا وديفي من نافذة غرفة النوم، ولكن أمي بقيت لتبحث عن شيء، فعاد ليحضرها ولم أرهما بعد ذلك... كان الدمار هائلاً. علمت بعد ذلك أن السلالم انهارت وعلق أبي وأمي في الطابق الأعلى.

تحرك رونان فجأة فأخذ كوبه وارتشف ما تبقى فيه جرعة واحدة، إذ لم يجد أمامه خياراً آخر حتى يمنع نفسه من احتضانها، لأنها ما كانت لترحب بمثل هذا التصرف منه خاصة. فلديها ما يكفيها لمواجهته ولا ينقصها المزيد

من الضغوطات.

سألها بصوت أبح: «كم كان عمرك حينذاك؟».

- سبعة عشر.

- وديفي؟

- إحدى عشرة سنة، وصادف عيد مولده بعد دفن والدينا بيوم.

كانت الكلمات وحدها صعبة بما يكفي. لكن ما زاد الطين بلة هو وقوف رونان على الحياد، حتى أنه لم يتحرك من مجلسه لمواساتها أو احتضانها والتخفيف عنها.

وكم كانت تتوق ليهمس لهاكلمات تواسيها.

ولكن الحقيقة القاسية صفعتها بقوة مضيفة جرحاً آخر إلى جراح قلبها. فرونان لا يهتم لأمرها وقلما يكترث لحزنها. صحيح أنهما خلال الأيام الماضية، كانا يقطنان معاً تحت سقف واحد إلا أن الأمر كان يقتصر على ذلك فحسب.

شعرت ليلي، فجأة، بالإنهاك، فارتمت على الوسائد خلفها.

- وماذا حدث لكما؟

- وضعونا في نزل حيث أمنوا لنا المنامة والفطور. ولكن كره ديفي ذلك، ولم يستطع أن يتكيف على العيش مع أناس كثيرين، خاصة وأن بعض الغلمان الأكبر منه سناً كانوا يحاولون إخافته.

- هل هذا سبب مبالغتك في حمايته؟

بدا في عينيها لمحة من التمرد وهي ترد عليه بحدة: «أنا لا أبالغ في حمايته! فديفي يصغرني بكثير وشعرت بالمسؤولية نحوه! كان خائفاً ضائعاً ويفتقد أبوينا كثيراً، وخلال وقت قصير، وجدت لنفسي عملاً واستأجرت شقة سكنت فيها مع ديفي».

- ومن كان يرعاكما؟

كان هذا آخر سؤال توقعته، نظرت إلى عيني رونان بحدة. فدهشت وهي ترى مبلغ شحوبه وإنهاكه. فقد بدا وكأنه فقد كل لون.

- كنت الأكبر سناً. والأهم أنه لم يكن عليّ أن أعيش مع ذلك الرعب الذي كان يتملك أخي.

ضاقت عيناه بحدة، واخترقتها نظراته بكثافة أشعة الليزر: «أي رعب؟».

- ظن نفسه مسؤولاً عن موت والدينا. فقد اعترف لي بأنه لم يستطع أن ينام في تلك الليلة فنزل إلى الطابق الأسفل ولم يستطع أن يقاوم رغبته في إشعال الشموع مع أنه كان ممنوعاً من ذلك وقبل أن يعود إلى فراشه نفخ عليها وأطفأها. لكنه لم يكن واثقاً تماماً من ذلك.

لأول مرة في حياتها تكشف عن ذلك الرعب الذي كان يعاني منه أخوها طوال السنوات الماضية. كان هذا هو الظلّ الذي يرافق ديفي يومياً، ويسبب له الأحلام السوداء التي تدمّر سكينة نفسه في الليل.

- مسكين ديفي.

ودهش رونان وهو يرى نفسه يشعر بالأسف لأجله: «هل هذا ما يسبّب له تلك الكوابيس؟».

أذهلها تعاطفه هذا، ولم تستطع سوى أن تومىء إيجاباً وقد اغرورقت عيناها بالدموع. ثم عقدت ذراعيها على صدرها بضعف وكأنها تزود نفسها بما تحتاجه من مواساة.

- إنه.. إنه يحلم بالنار.

وفرت دمعة من جانب عينها منعتها التعاسة والإنهاك من أن تمسحها.

- وهذا ما يصيبني أنا أيضاً، عندما تهزمني الظروف، تنتابني الكوابيس..

- أواه.. يا ليلي!

تحرك أخيراً رونان وأسرع يأخذها بين ذراعيه، ومزّقت مبادرته هذه آخر خيط في سيطرتها على نفسها فانهارت وهي تشهق بالبكاء.

وسمعت صوته يهمس لها مواسياً، مخففاً عنها حتى مرت العاصفة واستعادت هي بعض الهدوء وتحولت شهقاتها إلى لهاث غير متزن. عندها

رفعت وجهها إليه بحركة غريزية وكأنها طفلة مجروحة تلتمس العزاء.

لم تتوقع منه هذا التردد، لكنه تسمر مكانه ثانية أو اثنتين، قبل أن يمسح بملامساته الخفيفة آثار دموعها. أثارت لمساته في قلبها شوقاً عميقاً، رغم إدراكها أن المواساة التي يقدمها لها كانت ضعيفة الأساس.

فما أظهره لها لم يكن اهتماماً عميقاً لرجل يحبها ومستعد للقيام بأي شيء ليخفف عنها آلامها بل مجرد مبادرة من رجل لا يمكنه أن يجلس متفرجاً على دموعها من دون أن يفعل شيئاً.

لكنها ستكتفي بهذا القدر من العطاء، فهي بحاجة ماسة إلى التعزية. وستدع حرارة المشاعر التي يثيرها فيها بسهولة تبعد عن ذهنها أفكارها التعسة الأخرى. فمع رونان لا تفكر بسوى الشوق الذي يلتهب في داخلها إليه، وجلّ ما عليها أن تفعله الآن هو أن تستمتع بهذه البهجة لتنسى كل شيء آخر.

ولكنها صعقت عندما أخذ رونان يشتم بعنف مبعداً نفسه عنها، بقوة جعلته يقفز إلى منتصف الغرفة ثم يقف ناظراً من النافذة إلى ظلام الليل ويداه في جيبيه. وأخيراً تنهد ورفع يده ليبعد خصلات شعره عن وجهه وقال بصوت غير ثابت: «علينا أن نتحدث، يا ليلي».

يتحدثان.. هذا آخر شيء تريده. ولكنها عندما فتحت فمها لتحتج، تحول ذلك الاحتجاج إلى تثاؤب واسع مؤلم، إذ شعرت بالإرهاق، فعادت تستلقي بضعف على ذراع الأريكة، غير قادرة على كبح تثاؤب آخر. فتابع رونان كلامه بهدوء: «ولكن ليس هذه الليلة، فأنت متعبة ويجب أن تخلدي إلى النوم».

أين؟

أرادت ليلي أن تسأله ذلك، ولكنها لم تجرؤ، إذ ظهر شيء جديد مقلق في طباع رونان، شيء وضع مسافة كبيرة بينهما ولم تعرف كيف تجتازها. يمكنها أن ترى حواجز ولافتات تقول بوضوح (ابقي خارجاً ممنوع الدخول).

واستسلمت مكرهة وهو يساعدها على النهوض عن الأريكة، ليسندها في صعودها السلم إلى غرفة نومها.

وكان هذا خير دليل على تغيّره، فكل ليلة كان يبقى بعيداً عن غرفتها فلا يدخل إليها، أو لا يفتح بابها. لكنه قادها الليلة إليها مباشرة ثم أجلسها على حافة السرير وهو يقول: «أظنك بحاجة إلى النوم».

بينما كان يهم بالخروج خطر لها أنه يعني ذلك حقاً. ولكنها لم تجد الكلمات لتطلب منه العودة. خفق قلبها ببعض الارتياح عندما رأته يتردد، وقد بدت عليه الرقة، ثم قال لها: «وهل بإمكانك أن ترتاحي؟ ماذا بشأن تلك الكوابيس؟».

ولكنه في هذه اللحظة بدا وكأن النار في أعقابه. كانت عيناه غائمتين متبلدتين وقد حُفرت حول أنفه وفمه خطوط واضحة.

ـ ثمة طريقة واحدة لإبعاد الكوابيس.

وربتت على جانب السرير تدعوه. وعندما لم يستجب رمته بابتسامة باهتة، وشعرت بالخوف عندما لم يبادلها ابتسامتها وإنما أخذ يحملق فيها ببرودة.

ـ لا.

قال ذلك بصلابة وعناد.

ـ رونان، أرجوك!

كانت تعلم أنها ستذوق الأمرين إن هو تركها بهذا الشكل. فالرعب سيقض مضجعها حتى يجافيها النوم.

ـ لا.

وكانت هذه المرة أكثر إصراراً من السابقة، رغم أنه لم يرفع صوته.

ـ لكنني خائفة يا رونان! خائفة من الانفراد بنفسي، لن أستطيع أن أنام..

تنهد بإذعان وهو يعود فيتخلل شعره بأصابعه: «لن تكوني وحدك، سأنام هنا».

وأشار إلى الأريكة القديمة الطراز القائمة عند النافذة.

ـ لكنك لن ترتاح هناك أبداً.

ـ سأتدبر أمري.

ـ رونان..

ـ لا. إما أن توافقي أو أخرج وتنامين وحدك. ماذا تختارين؟

لم يكن أمامها سوى الموافقة، حتى لا تواجه رعب قضاء الليل وحدها.

ففي تلك الليالي التي جمعتها بزوجها عرفت السلام الحقيقي، والنوم المريح، ولم تعد تطيق فكرة العودة إلى مواجهة الكوابيس وحيدة. لذا لم يكن أمامها سوى الاكتفاء بوجوده المريح.

في نهاية المطاف، استرسلت لنوم عميق مع أنها تعذبت في البداية وهي تراه قريباً بعيداً. وخافت أن تعاني من الأرق طوال الليل. ولكن الإنهاك ما لبث أن تغلب عليها فنامت ملء جفونها ولم تستيقظ إلا متأخرة صباح اليوم التالي على صوت المطر على زجاج النوافذ.

رأت رونان متكوراً على الأريكة، مستغرقاً في النوم، وقد تساقطت خصلات شعره على وجهه. أما غطاؤه فقد تداخل في بعضه البعض وسقط منه، منبئاً بأنه أمضى ليلة متعبة.

ارتدت عباءتها المنزلية الخضراء ثم نهضت عن السرير مجتازة الغرفة حافية لتجثم على جانب الأريكة.

تحرك رونان قليلاً وأخذ يتمتم أثناء نومه، وكأنما أحس بنظراتها. ثم، فتح عينيه فتشابكتا مع عينيها الذهبيتين.

للوهلة الأولى، شعر رونان بالسرور وراح يتمطى كهرّ كسول يستمتع بدفء الشمس. فرؤيتها قربه بشعرها الذهبي ورائحة عطرها المتوهج دفعته منجرفاً مع تيّار دافئ متألق.

وإذ تحركت قليلاً، استيقظ فيه شوق عنيف شعر به أشبه بسكين حادة تخرق كل عصب فيه، وجعله يريد أن يجذبها إليه.

لكن ذكرى أحداث الليلة الماضية كانت أشبه بصفعة على الوجه من

كف متوحش، وشعوره القوي بالذنب الذي تلا ذلك كان من القوة بحيث قاوم أكثر الإغراءات. فقد بقي مستيقظاً ساعات طويلة، بعد أن استسلمت ليلي إلى النوم، وهو يعيد حساباته ليصل إلى النتيجة التي لا يمكن إنكارها.

لا يمكن أن يجمعه المستقبل مع ليلي إن لم يصارحها ويخبرها كل شيء. والمشكلة أنه يخشى في أعماقه من تأثير الحقيقة عندما تنكشف. ولعل الخوف من ألا يجمعهما المستقبل، هو ما أبقاه مستيقظاً حتى الصباح.

إنما عليهما، أولاً، أن يتحدثا. فأسبغ على ملامحه قناعاً من الهدوء هو أبعد ما يكون عما يشعر به، ورسم على ثغره ابتسامة باهتة: «صباح الخير».

لم يستغرق ذلك سوى ثانيتين. لكن ليلي رأت تبدل ملامحه السريع، مما أثار قلقها. فقد بدا لها أن ما أبعده عنها الليلة الماضية، بقي مستحوذاً على أفكاره حتى الصباح.

ـ هل نمت جيداً؟

ـ نعم، تماماً.

جاء جوابها جافاً غير ثابت. وقد أحست أنه، عاد مثلها بأفكاره إلى يوم زواجهما الأول، عندما استيقظت لتراه ينظر إليها وهي نائمة كما تنظر هي الآن إليه.

ـ وماذا عنك؟

كان يبدو مخيفاً، وكأنه لم يذق طعم النوم إلا مع طلوع الفجر. وأخذ يتمطى ببطء، متجهماً وهو يتلمس عضلاته التي تصلبت بتأثير نومه على الأريكة.

ـ ساعيش!

ألقى تلك الكلمة بلهجة عفوية خالية من الحماسة، ولكن ليلي لم تجد الوقت لتفكر في مضمونها إذ أضاف قائلاً: «بالنسبة إلى الليلة الماضية، اعلمي أنني لم أكن أعرف شيئاً عن الموضوع. لم يتفوه ديفي بكلمة عن والديكما وحادثة موتهما، ولو كنت أعلم ما كنت عانيته..».

ـ لما تزوجتني؟

فأجابها بصوت فاتر خالٍ من المشاعر: «هذا صحيح. ما كنت تزوجتك قط، وأنا آسف لذلك».

هل علم كم آلمها بقوله هذا؟ وارتفعت يدها إلى فمها تكبح نشيجاً حزيناً كاد يفلت منها.

ـ لا يمكنك أن تتصوري كم ندمت عليه.

أحست وكأن سكيناً حادة أغمدت في قلبها، ولكنها استجمعت مكرهة شجاعتها لترد عليه بحدة: «لكنك أردت الانتقام، ووجدت فيّ شخصاً يسدّد ديون ديفي».

ـ ديون؟

ردّد كلمتها بسخرية:

ـ لا يمكن لأحد أن يعيد ما أخذه أخوك مني.

تنفست ليلي بعمق، وقالت له مرددة على مسمعه ما سبق وأكدته له: «أرجو منك أن تصدقني، سأسدد كل قرش حتى آخر قطرة من دمي».

صعقها صمت رونان الفجائي، وأحست وكأن يداً باردة تعتصر قلبها، ثم قالت وهي ترتجف: «لم يكن ذلك مالاً، أليس كذلك؟».

لم تترك الشراسة التي هزّ بها رأسه لديها مجالاً للشك في ما فكرت فيه.

ـ وما يجرحني أكثر هو ما ظننته بي. هل تعتقدين حقاً أنني من ذلك النوع من الرجال الذين يسعون للانتقام من أجل (المال)؟

ـ لا..

بالرغم من كراهيتها له لطالما أحست بأنه ليس حقوداً، وقاسياً إلى هذا الحد.

ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم أرغمت نفسها على مواجهة نظراته الثاقبة كأشعة الليزر، رافعة الرأس مستقيمة الكتفين وكأنها تعد نفسها للمواجهة الصعبة.

ـ أعلم أنك لم تربط ديفي بذلك النوع من العقود كما يدعي، وهذا

يعني أن أخي كذب عليّ منذ البداية. فلماذا لا تخبرني عما حدث حقاً، يا رونان؟ لماذا لا تخبرني بالحقيقة؟

***

www.elromancia.com

١٠ ـ قلب لا يعرف السلام

لا يريد أن يخبرها.

توترت أعصابها وأصيبت بالذعر فتسارعت دقات قلبها، واشتد خفقان النبض في عنقها حتى كادت تختنق. ما الذي حصل فعلاً ولم يشأ لها أن تعرفه؟ إنه لا يريد أن يخبرها.

تردد صدى هذه الكلمات داخل رأس رونان بألم، فكل ما خشي أن يحدث وهو مستلقٍ في ظلمة الليل قد تحقق، ولم يعرف كيف سيواجه تلك الحقيقة.

لقد خيل إليه أن ديڤي أطلع ليلي على كل شيء. فمنذ لاحظ أنها تحاول أن تشتري سلامة أخيها، أقنع نفسه بأن كل ما يأخذه منها من متعة له ما يبرره بالنسبة لشروطها اللاأخلاقية.

ولكن انضح له الآن أنها بريئة من كل التهم لأنها تجهل ما فعله ديڤي. وإذ أعمته رغبة الانتقام، استولى على حياتها وسحقها، وداس على مشاعرها بلا مبالاة. ألم يجعل منه تصرفه هذا أسوأ أخ؟

إن أخبرها الآن الحقيقة، فستكرهه أكثر من أي وقت مضى، وتطلب منه الرحيل إلى الأبد. وسيخسر أي فرصة يعرف فيها المزيد عن ليلي.

جلّ ما بوسعه أن يفعله هو أن يسهّل الأمور عليها قدر الإمكان. هذا إن كان من السهل عليها أن تعرف أنها وقعت ضحية للاستغلال والكذب من كليهما.

هكذا أصرّ على أن يرتديا ملابسهما ويتناولا الإفطار قبل البدء بالكلام.

ولكن الإفطار، لم يكن سوى مجرد عمل آلي إذ لم يتناولا إلا القليل والقليل جداً منه.

وأخيراً، حمل رونان فنجان القهوة إلى غرفة الجلوس وتبعته ليلي بصمت، وعندما وقفت عند العتبة لا تدري ما تفعل، قال: «اجلسي».

ـ هل من داعٍ لذلك؟

وندمت على الفور لوقاحتها هذه، فكل من يرى وجه رونان المقطب وكآبة عينيه، يعرف أن مزاحها في غير محله.

ـ آسفة.

وتهالكت على الكرسي.

أخذ قلبها يخفق بعنف، وشعرت بالغثيان من رائحة القهوة في يدها فوضعت فنجانها جانباً بسرعة.

بدأ رونان كلامه قائلاً: «غريب كيف يمكن أن تتغير حياة المرء في ظرف ستة أشهر. ففي ستة أشهر، تجدين أن كل ما تؤمنين به أو تحبينه يتحطم أو يتلف بشكل يتعذر إصلاحه».

ستة أشهر؟ ولكن مرت أربعة أشهر فقط منذ تعرفت على رونان لأول مرة، وأثناء تلك الأسابيع الطويلة ضرب إعصار عنيف حياتها وقضى عليها.

فأجابته بتأثر: «أعلم هذا».

رفع رونان رأسه بحدة، وعيناه تتوهجان في عينيها قائلاً: «نعم، من المفروض أنك تعلمين».

وهبطت نظراته إلى فنجان القهوة مرة أخرى، محدقاً فيه وكأنه، مثلها، لا يرغب في شربه.

ـ أظن أن وضعي كان مشابهاً تماماً لوضعك عندما كنت في السابعة عشرة، فقبل ستة أشهر كنت أحظى بكل ما قد يسعد المرء. أموال كثيرة، نجاح واسع، صحة جيدة والأفضل من كل شيء أسرة رائعة.

خفق قلب ليلي بحدة، فشهقت بصوت مرتفع، هل كان لديه أسرة؟

وتردد صدى هذه الكلمات في رأسها وكأنه دقات جرس الموت المريع لكل أمل لديها. فحين سألته أثناء عرسهما عن أسرته، أجاب أن ليس لديه أسرة وها هو الآن يثبت مخاوفها بقوله: «كان لديّ أم وأب وأخت صغيرة أعشقها».

ـ آه، يا إلهي رونان! ماذا حدث؟

ـ حدث أن تعرفت إلى أخيك.

وتغيرت ملامح وجهه، والتوى فمه بمرارة وأصبحت عيناه كالفولاذ.

ـ د.. ديڤي؟

ـ نعم ديڤي. ديڤي كورنويل اللعين. دعيني أخبرك عن أخيك أو عما أسميه «تأثير كورنويل».

لا.. أرادت ليلي أن تصرخ، وتسدّ أذنيها بيديها.

ـ كانت أختي، روزالي، على وشك إتمام عامها الثامن عشر، وفي آخر سنة من دراستها العالية..

ـ روزالي.

واشتد توتر أعصاب ليلي وهي تتذكر كلامه السابق عنها. فقد ظنت حينذاك، أنه يتحدث عن حبيبة قديمة، ولكنه كان يقصد أخته.

ـ كانت بالغة الذكاء، والجمال، انظري هذه صورتها.

ومد يده إلى جيبه فأخرج محفظته ومنها صورة ألقاها على المنضدة حتى تراها ليلي.

فتاة صبية، طويلة رشيقة، تشبه رونان. عيناها زرقاوان متألقتان وشعرها بني محمر، وابتسامتها واسعة تتألق سعادة. وأجفلت ليلي في داخلها وهي تفكر في كلماته (كان لدي أخت صغيرة).

ـ كنا نتوقع لها مستقبلاً رائعاً، لأنها أرادت أن تلتحق بكلية الحقوق. ولكنها تعرفت إلى أخيك.

وضرب بقبضته اليمنى راحة يده اليسرى بعنف فأجفلت ليلي، وانكمشت في كرسيها.

ـ لقد عرّفتها بأخيك.

ـ آه، لا.

تضرعت إليه أن يصمت وقد فقدت قدرتها على سماع لهجة المرارة وهو يعنف نفسه.

فألقى عليها نظرة ساخرة مرة إلى حد مزقت قلبها.

ـ في طيات الأكاذيب التي أخبرك إياها، قد تجدين شيئاً من الحقيقة. فقد وقعت معه عقداً، لأنقذه من المأزق الذي زج نفسه فيه.

ـ ولماذا فعلت ذلك؟

ـ في التاسعة عشرة من عمري، وخلال سنتي الجامعية الأولى، استهواني اللهو وصرت أتغيب عن المحاضرات، وأهمل دروسي إلى أن أدركت أن عليّ أن أعيد الامتحان أو أُطرد من الجامعة. ولهذا السبب تعاطفت مع أخيك، خاصة وإنه يملك موهبة حقيقية، فهو موسيقي مذهل وصوته صوت رائع ومؤلفاته الموسيقية مميزة. لقد عزف لي بعض القطع من تأليفه، وأثرت فيّ أي تأثير.

وماتت الكلمات على شفتيه، ومرت لحظات صمت عميق لم تستطع خلالها أن تحوّل عينيها عن رونان. وكان وجهه شاحباً والعذاب البادي يحترق في عينيه. ثم قال بجفاء: «وهذا ما جعل روزالي تبكي».

ـ آه، يا إلهي!

وغالبت ليلي دموعها كي لا يظن رونان أنها من أجل ديڤي، فيسيء الحكم على موضع تعاطفها.

وتنهد رونان بعمق وهو يدس يده في شعره.

ـ كنت أعلم أن ديڤي مدمن. أما ما كنت أجهله فهو تعاطيه المخدرات أيضاً.

ـ المخدرات؟

أطلقت صرخة ذعر حوّلت عيني رونان الحزينتين إلى وجهها.

ـ ألم تكوني على علم بالأمر؟ ألم تلاحظي شيئاً خلال وجوده هنا؟

ـ أنا..

فهمت الآن سبب مزاج ديڤي العنيف والمتقلب والنظرات البليدة في عينيه وهزاله البالغ واختفاء النقود من حقيبة يدها.

ـ ماذا..؟

حاولت أن تتكلم فخانها صوتها. لكن رونان فسّر صمتها بسهولة.

ـ في البداية كان يأخذ حبوباً مضادة للاكتئاب. ولكن، عندما تعرفت إليه كان قد بدأ يتعاطى الهيروين.

ـ أواه، يا ديڤي!

كيف يمكن أن يحدث هذا لأخيها الصغير؟

ـ لم أكن أعلم أنه خرج عن الطريق المستقيم إلى هذا الحد.

لقد أعماها حبها لأخيها فلم تر عيوبه.

كانت إيماءة رونان اعترافاً حزيناً بأنه يصدقها.

ـ حاولت أن أعالج المشكلة، وأجعله يتبع برنامجاً لإعادة تأهيله ووعدته بأن أساعده على بناء مستقبل عظيم إن أحسن التصرف. ولكنني لم أحسب حساب أصدقائه، أعضاء فرقة موسيقية اعتاد أن يعزف معهم.

والتفت إليها، فتنفست بعمق: «لم يحسن ديڤي قط اختيار أصدقائه. فقد كان يحرص على إرضاء الشخص ليقبل به مرافقاً».

فقال رونان ساخراً: «استمر رفاقه بتمويله بالشراب والمخدرات حتى أضّروا به. أخوك، يا ليلي، يملك موهبة عظيمة. لكنه أفسد كل شيء تحت تأثير رفاقه».

ـ لقد أخبرني ذلك.

وإذ لاحظت أنه يضغط بشدة على فنجانه، خافت أن يهشمه فسارت إليه تأخذه منه، ثم نظرت في عينيه، وهي تضيف بإخلاص: «كان يشعر بالأسف البالغ لذلك».

ـ حري به أن يشعر بالأسف.

أجابها رونان بذلك باختصار ووجهه كحجر الصوان.

ـ أردت أن أقيده بعقد، حتى يعود إلى رشده ويواجه الواقع فيجتهد في العمل ليبني مستقبله. وبعد أن توقف عن دفع الإيجار طرد من شقته، فدعوته للإقامة عندي فترة من الزمن، وهناك تعرف إلى أختي.

ثم نهض واقفاً واجتاز الباب المؤدي إلى الحديقة حيث وقف يحدق إلى المطر وقد بدت الكراهية في كل خلية من كيانه.

ـ وصلت روزالي أثناء غيابي عن البيت. وعند عودتي بدا واضحاً أن ديڤي قد فتنها ودخل قلبها. إنه فتى وسيم، وساحر. وإن هو صمم على شيء لا أحد يستطيع ردعه.

ـ وحذرت أختك منه طبعاً.

ـ وماذا يفترض بي أن أفعل غير ذلك؟

قال ذلك وهو يستدير ليواجهها فأجفلت وهي تدرك أنه أخطأ فهم كلامها، واعتبره انتقاداً.

ـ أردتها أن تمنحني وقتاً لأصلحه وأعيده إلى الطريق المستقيم. لكنها اتهمتني بالاستبداد وادعت أنني لا أعرف شيئاً عن الحب. أظنها شبهت نفسها بجولييت وهو بروميو، فلقيت المصير نفسه تقريباً.

وتملك ليلي الأسى وهي ترى ارتجاف يديه الكاشف عن الكآبة التي سيطرت عليه. وتمنت لو تسير إليه وتحتضنه مواسية، لكن حدسها أنبأها بأنه سيرفض هذا.

ـ وماذا حدث؟

ـ في عيد مولدها الثامن عشر أخذها ديڤي إلى أحد النوادي الذي تعود أن يرتادها للاحتفال. وفي ذلك المكان كانوا يزودونه بكمية وافية من المخدرات.

ـ آه، لا..

همست ليلي بذلك وقد بدأت تدرك ما حدث. وتابع كلامه قائلاً: «آه، نعم. لقد جعلها تبتلع حبة لعينة كاملة من حبوب «النشوة» تلك».

كانت نبرة صوته عنيفة للغاية، تعكس الألم الذي لم يسمح له بالظهور

على ملامحه. فبدا لها وكأنه حبس هذا العذاب في داخله طوال الوقت، حتى أخذ يتقيّح مسمماً كيانه.

- حبة واحدة، قتلتها تلك الحبة. بقيت في قسم العناية الفائقة عدة أيام، لكننا كنا نعلم جميعاً أنه لا أمل يُرجى.

التفتت ليلي إلى منضدة القهوة ببطء، تعيد النظر إلى صورة روزالي التي تركها رونان هناك فاغرورقت عيناها بالدموع وهي تتصور هذه المخلوقة الجميلة الضاحكة المليئة بالحياة، ممددة جثة هامدة. وتذكرت مبلغ الوحشة التي شعرت بها عندما مات والداها بذلك العمر المبكر. ورأت أن بإمكانها أن تشارك رونان الصدمة والعذاب اللذين عانا منهما إزاء خسارته الهائلة تلك.

- رونان. أنا آسفة..

لكنه لم يسمعها، لأنه كان يهم بالخروج من الغرفة، وكاد يخرج من الباب عندما أدركت ذلك.

- رونان!

وتعثرت راكضة خلفه وقد تملكها الذهول والاضطراب، ثم أمسكت به في الردهة.

- رونان، انتظر.

بدت لها النظرة التي ألقاها عليها أشبه بصفعة على وجهها.

- هذا ليس كل شيء، أليس كذلك؟

- أليس كافياً؟

بل أكثر مما يكفي، وأكثر مما تستطيع احتماله. ولكنها تريد أن تعرف الحقيقة بأكملها مهما كانت قاسية.

عاد رونان يبتعد عنها، فأرغمت نفسها على اللحاق به إلى الردهة ومن ثم إلى الخارج. ذكرها هذا المشهد باليوم الأول من زواجهما، حين لحقت به إلى هنا بنفس الطريقة، طالبة منه تفسيراً.

- رونان، أخبرني؟

وقف بشكل مفاجيء فكادت تصطدم به من الخلف. ولكن عندما تقدمت إلى الأمام لترى وجهه، اعتصر قلبها لرؤية شحوب وجهه والحزن في عينيه.

فقالت تلحّ عليه: «أخبرني».

مضت لحظة طويلة ظنت خلالها أنه سيهز رأسه نفياً ويرفض إخبارها. لكنه عاد فنصب قامته وكأنه قبل ما لا مناص منه.

- وجد أبي نفسه مرغماً على اتخاذ قرار قطع أجهزة إمدادات الحياة عن روزالي التي كانت ميتة سريرياً. ولكن هذا القرار حطمه، إذ لا يتوقع الآباء العيش أكثر من أولادهم. وذهب إلى الكاراج وملأ أنبوبة من الغاز أفرغها في السيارة، ثم أدار المحرك وكنت أنا من وجدته.

وارتسم على وجهه رعب تلك اللحظة.

- وهل..

ولم تستطع أن تكمل سؤالها.

- لا. أدركته قبل فوات الأوان. لكنه بقي في حالة خطرة لبعض الوقت.

ونظر إلى وجهها الذاهل بما يشبه الشماتة المتجهمة: «حسناً، أنت من أراد معرفة الحقيقة».

- نعم، هذا صحيح.

وهي الآن تعلم. شعرت في أعماقها وكأنها تتمزق وكأنها لن تعود أبداً إنساناً سوياً.

- وأمك؟

- بذلت قصارى جهدها لتتماسك وتمنع نفسها من الانهيار إذ كان والدي بحاجة بالغة إليها.

- أخبرتني أنه ليس لديك أسرة.

فأجابها بصوت بارد، باتر كالسيف: «كذبت عليك. كان ينبغي أن أخبرك بأن أفراد عائلتي يرفضون حضور الزفاف».

- لا شك أن والديك لم يرضيا بهذا الزواج.

أخذت تتذكر بأن المدعوين كانوا من الموظفين الذين لا يعلمون شيئاً عن حياته الخاصة أو يتحدثون عنها، ما عدا شاهد العرس الذي أزعجها موقفه منها حينذاك.

ـ بالضبط. لم يكن بوسعي أن أقول لهما، إنني سأتزوج من أخت الفتى الذي أعطى الحبة القاتلة لروزالي، فهل ستحضران؟

لذعتها سخريته القاسية بينما تابع كلامه قائلاً: «لا أظنهما كانا سيحضران الزفاف».

ـ ألم تخبرهما الحقيقة؟

الحقيقة هي أنه أراد أن يستعمل ذلك الزواج سلاحاً ضد أخيها.

هز رأسه وهو يقول: «كان حزنهما عميقاً جداً، فخطر لي أن أعالج الأمور بنفسي».

ـ وتقصد بذلك الانتقام؟

ـ أردت أن أؤذي أخاك، وأدمره كما دمر أسرتي. لكنني لم أستطع العثور على ديفي. فمنذ موت روزالي توارى عن الأنظار، فخطر لي أن ثمة طريقة أخرى.

فقالت مرغمة نفسها: «أنا».

أجاب بخشونة: «أنت».

ليته يستطيع الإنكار! ولكنه وعدها بأن يخبرها الحقيقة كاملة، مهما كلّفه ذلك.

وما الفرق الآن؟ لقد فقدها، كما كان يتوقع. رأى ذلك في عينيها، وفي الظلال التي كانت تحيط بهما، وفي صوتها البارد النائي. لقد فقدها.. وكاد يقهقه ضاحكاً لهذه السخرية المرة. ما الذي كان سيخسره؟ منذ أسبوع أوضحت ليلي شعورها نحوه. ربما يستطيع لمسها وبعث رعشة الحياة في جسمها، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يصل إلى عقلها الذي أغلقته في وجهه. فقد كرهته لما فعله بها، ومن يلومها؟ فهو يكره نفسه.

ـ غالباً ما كان ديفي يتحدث عنك. ماذا تعملين وأين تعيشين،

فحسبت أنني أستطيع الوصول إليه من خلالك، واعتبرت الأمر عدلاً. ليس العين بالعين إنما الأخت بالأخت.

ـ وتدمّر سعادتي؟ وتدمّرني؟

كان من التهذيب، على الأقل، بحيث لم يتجاهل هذا السؤال، فنظر في عينيها مباشرة وهو يجيب: «نعم كانت تلك خطتي».

ـ وهل أنت سعيد الآن؟

ـ سعيد؟

ردّد هذه الكلمة وكأنه لم يفهمها.

ـ لا، لست سعيداً.

ـ وما الذي يسعدك إذن؟

قذفت هذه الكلمة في وجهه بمزيج من الألم والتحدي والرعب لفكرة أنه حتى الآن لم يشعر بالرضا، فما فعله ديفي كان مريعاً. ولكنه شعر على الأقل بالندم، وتأنيب الضمير.

ـ ومتى تتخلص من كراهيتك هذه؟ بعد أن تحطم حياتي تماماً؟ لكنك حطمتها الآن! وجعلتني أكرهك كما لم أكره إنساناً من قبل..

مع كل تهمة ألقتها، كانت تتقدم إلى الأمام وإذا بها تذهل وهي ترى رونان يتراجع مبتعداً عنها، رافعاً يديه أمامه وكأنه يدافع عن نفسه.

لم يخطر في بالها قط أن رونان قد يحتاج إلى من يحميه منها. كانت بعيدة عن العقل بحيث كادت تمحو العذاب الذي تحسه.

ـ متى تخرج من حياتي يا رونان؟ متى ترحل إلى الأبد وتتركني بسلام؟ ولكن إلى أي مدى تريد أن تبتعد عني؟ أتريد تدمير ديفي، أم أنك تريد أن تراني ميتة، مثل روزالي.

تسمر مكانه وهو يسمع كلماتها تلك وراح يحدق إليها وقد زال من وجهه كل أثر من لون.

ـ يا إلهي! يا ليلي! لا، أبداً! لم يخطر في بالي قط..

ـ بل لم يخطر في بالك أي شيء على الإطلاق! لم يخطر في بالك أن تخبرني

عما فعله ديفي، لتمنحني الفرصة لأظهر لك تعاطفي معك، لم يخطر في بالك قط أنني قد أجد حلاً..

- ما كان بإمكانك..

- ما كان بإمكاني أن أفعل شيئاً؟ وهل منحتني فرصة؟ كان بإمكاني أن أبذل جهدي لتصليح الأمور!

- وهل تحبين أخاك إلى هذا الحد؟

- أحب أخي بقدر ما كنت تحب أختك. هل أقنعك هذا الجواب؟

ولقد أقنعه فعلاً، فلطالما تساءل عن السبب الذي جعلها تقبل مشاطرته حياته الزوجية بعد أن قالت إنها تفضل الموت على ذلك. ها قد وجد الجواب على سؤاله.

فقد قدمت ليلي نفسها قرباناً لأجل أخيها، معتقدة أن ذلك قد يساعده. وقبلت أن تشاركه حياته علّه ينسى حقده على أخيها.

لم يعد من سبيل للتراجع الآن. لم يعد من سبيل لشفاء الجراح التي أحدثها في نفسها، جلّ ما يمكنه القيام به لأجلها هو أن يتركها بسلام كما طلبت منه.

وإذا به يدرك فجأة، وفي تلك اللحظة بالذات، أنه يحب هذه المرأة، وأن الطريقة الوحيدة لإثبات ذلك لها هي أن يبتعد عنها.

أرغم نفسه على أن يجيبها من خلال شفتيه المتخشبتين: «نعم. أظن ذلك. سأعطيك الآن جواباً عن سؤالك».

- سؤالي..؟

وحاولت أن تتذكر سؤالها ذاك، ولكن عقلها توقف عن العمل كما تجمد الدم في عروقها، إزاء لهجته الفاترة والازدراء الثلجي في عينيه.

- طلبت مني أن أخرج من حياتك، وأرحل وأتركك بسلام وإلى الأبد.

- ولكن..

لم تستطع القول إنها قالت ذلك بدافع الغضب والألم. فآخر ما تريده هو أن يخرج من حياتها، لأنها تحبه وقد تموت إن تركها من جديد.

ولكن هذا ليس عدلاً، فرونان لا يحبها، ويعتبرها مجرد أداة للانتقام من ديفي. فما فعله ديفي سيبقى دائماً عائقاً بينهما. لقد ألحق أخوها الأذى برونان وأسرته إلى حد لن تستطيع الضغط عليه أكثر ليواصل علاقاته بالأسرة التي يكرهها أشد الكره.

إنها تحب رونان أكثر من الحياة نفسها، لكنها تعلم، أن الطريقة الوحيدة لإظهار حبها هي بأن تطلق سراحه ليتعرف إلى امرأة أخرى، قد تساعده على شفاء الجرح الذي أحدثه فقدانه لأخته.

وقفت صامتة، تستمع إليه من دون أن تنبس بكلمة، رغم أن قلبها كان يصرخ بعذاب.

- الجواب هو أنني سأحزم أمتعتي وأختفي من حياتك من دون عودة، فهذه المرة سأتركك بسلام وإلى الأبد. لا بل سأفعل أكثر من هذا، سأعطيك حريتك، حالما أصل إلى لندن سأطلب من المحامي القيام بإجراءات الطلاق.

***

١١ ـ لأجلها

أصبح فصل الخريف على الأبواب. وقفت ليلي أمام النافذة تنظر إلى المشهد الذي أمامها من دون أن تراه. استمر دفء فصل الصيف حتى أيلول، لكن الليالي أصبحت الآن أطول، والهواء أكثر برودة. حتى الحديقة التي انكبت على الاعتناء بها بعد رحيل رونان، لتشغل ذهنها وتتعب جسمها ذوت وبهتت واستعدت لاستقبال الشتاء. «كفى!».

أخذت تعنف نفسها وهي تتحوّل عن هذا المنظر الكئيب الذي يؤكد رحيل رونان ورغبته بالبقاء بعيداً. كم عانت خلال الأشهر الماضية وهي تبذل جهدها لمواجهة ذلك الفراغ المريع الذي خلفه في حياتها وقلبها.

ولكن من الصعب عليها ألا تحسب الأيام خاصة بعد أن اكتشفت أنها حامل. فلا شك أن هذا الجنين هو ثمرة تلك الليلة التي أمضياها معاً بعد عودتهما من نادي «الليدز».

في البداية، ظنت أن شعورها بالغثيان هو ناتج عن حزنها لرحيل رونان. لكن بعد أن طالت مدته أخذت تعد الأيام، فتأكدت من حملها.

أيقظها رنين جرس الباب من تأملاتها الكئيبة فأسرعت تفتح.

بقيت لحظات مذهولة مشتتة الذهن لم تستطع خلالها أن تميّز ذاك الفتى الواقف عند عتبة الباب فمع أن وجهه يبدو مألوفاً، إلا أنها..

ولكن عندما ابتسم لها، عرفته على الفور: «مرحباً، يا أختي. هل أدهشتك رؤيتي؟».

كان في صوته نبرة ارتباك، وكأنه لم يكن واثقاً ما إذا كانت سترحب به.

ـ ديفي!

وارتمت عليه تعانقه: «أين كنت؟ لماذا لم تتصل بي؟ أو حتى تبعث لي رسالة..».

ـ نعم، أعرف هذا، وأنا آسف للغاية.

وتملّص من عناقها وقد بدا عليه الحزن: «أردت أن أطمئنك عليّ، ولكن كان عليّ أن أعالج بعض المسائل أولاً..».

ـ ويبدو أنك نجحت في ذلك..

أخذ صوتها يرتجف وقد لاحظت التغير الواضح في مظهر أخيها. إنه شخص جديد متألق العينين نقي البشرة بادي الصحة.

كان شعره الأشقر الطويل، يلمع من تأثير العناية المنتظمة، وملابسه جديدة نظيفة، وجسمه أكثر امتلاءً وكأنه كان يأكل جيداً منذ رحيله.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ رونان غيرين.. لا..

رأى ديفي الخوف في عينيها فأسرع يطمئنها.

ـ لم يفعل شيئاً يؤذيني، يا ليلي. على العكس، نشلني من الضياع وأصلح حالي، فوضعني في مركز للعلاج من الإدمان، حيث كنت طوال هذا الزمن..

ـ رونان فعل هذا؟

ثم جذب انتباهها شيء آخر قاله ديفي: «هل دخلت مركزاً للعلاج من الإدمان؟ هل أنت الآن..؟».

ـ شفيت الآن تماماً، ولا أنوي العودة إلى الإدمان مجدداً. لم يكن الأمر سهلاً أبداً، ولكن رونان وقف إلى جانبي وساعدني في كل خطوة خطوتها. وبعد أن اجتزت هذه المصاعب كلها، لا أريد العودة على الإطلاق إلى ما كنت عليه، لأنني اقترفت أخطاء فظيعة.

ـ روزالي.

أظلمت عينا أخيها، وقال بصوت خافت: «نعم، روزالي. قال لي

رونان إنه أخبرك كل شيء».

وفجأة، عاد ورفع نظره إليها وأمسك بيدها قائلاً: «ولكن أقسم لك أنني لم أعطِ أنا تلك الحبة لروزالي. صحيح أنني كنت موجوداً، لكنني كنت في حالة من الشرود بحيث لم أعِ ما يحدث، فأقنعها أحد الفتيان بتجربة تلك الحبة».

وأمسك بيدها وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «شعرت بنفسي مسؤولاً عن ذلك، فلو كنت واعياً لتمكنت من منع ذلك، أو على الأقل، لنقلتها بسرعة إلى المستشفى عندما أدركت أنها في خطر. لن أغفر لنفسي أبداً يا ليلي. فقد أحببت تلك الفتاة من كل قلبي».

- وهل يعلم رونان هذا؟

ألقت هذا السؤال لاهثة وقلبها يخفق فإن علم رونان بأن ديڤي غير مسؤول عن موت روزالي، فقد يتغير الوضع بالنسبة إلى علاقتهما.

- نعم.

ولم يعِ ديڤي أن جوابه هذا أطفأ آخر قبس من الأمل لديها.

- عندما وجدت أخيراً الشجاعة لأذهب إليه وأطلعه على الحقيقة، كان مستعداً لمقابلتي. فتحدثنا لساعات طويلة عن طفولتي وموت أبوينا. وبعد ذلك وضع لي برنامجاً أسير عليه. لقد أنقذ حياتي يا ليلي.

- آه، يا ديڤي. أنت لا تعلم كم يعني لي كل هذا.

وأمسكته بيدها تقوده إلى الداخل، لتخفي الدموع التي حرقت عينيها. لقد استطاع رونان أن يصفح عن ديڤي، لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على الاتصال بها.

- أصر عليّ أن أكتب إليك وأعلمك أنني بخير، وأن آتي لرؤيتك حالما أخرج وقد وعدني بأن يجد لي مهنة لطالما حلمت بها إن بقيت بعيداً عن المخدرات. وأنا مستعد للقيام بذلك إكراماً لروزالي، ولك، ولرونان.

اكتفت ليلي بالإيماء بصمت، وهو يقرن اسمها باسم رونان من دون وعي منه.

- تبدين مختلفة يا ليلي، هل أنت حامل؟

لاحظ أخيراً التغير الذي أسبغه الحمل عليها.

- وفي شهري الرابع.

قالت ليلي ذلك بصوت امتزج فيه الضحك والبكاء في آن معاً.

- هل هو ابن رونان؟ قال إنه ثمة شيء ما بينكما.

- شيء ما..

وابتلعت ليلي غصة خانقة وهي تومىء بحزن. وإذ لم تستطع مواصلة كبح دموعها انهمرت على وجنتيها.

- أواه يا ليلي! هل يعلم؟

- لم.. لم أخبره.

- لم تخبريه...؟ ولكن عليك أن تفعلي، يا ليلي! له الحق في أن يعلم أنه ينتظر مولوداً. ألا ترين مدى أهمية ذلك؟ هذا شيء حسن.

لكن ليلي تشك في أن ينظر رونان إلى الأمر من هذا المنظار.

فقالت بصوت مختنق: «لن يرغب فيه، يا ديڤي، فهو يكره أسرتنا».

ولكن هذه الكلمات بدت لها فجأة غير مقنعة. فلو أن رونان يكرههم حقاً، لما ساعد أخاها إلى هذا الحد. فعادت تقول بألم مغيرة حجتها: «إنه لا يحبني».

فأجابها بحدة: «هل أنت واثقة من ذلك؟ فالرجل الذي عاشرته خلال الأشهر الأخيرة ليس هو نفس رونان الذي كنت أعرفه. لقد تغيّر، وكأن نوراً انطفأ في أعماقه. وهذا ليس بسبب روزالي فقط. إنه أشبه بشخص يعيش على هامش الحياة، ولا يهتم مثقال ذرة بأي شيء. لم أستطع أن أفهم ما سبب ذلك، ولكنني الآن كونت فكرة عن الموضوع».

رأى بصيص أمل في عيني أخته، لم تستطع أن تخفيه.

- عليك أن تذهبي إليه.. وأن تخبريه.

فهمست بقنوط: «لا أستطيع! ماذا لو أغلق الباب في وجهي؟ قد يقضي ذلك علي، خصوصاً الآن».

- لن تعرفي قط إلا إذا حاولت، أعرف أنه لن يأتي إليك. لقد أخبرني بأنك طلبت منه أن يخرج من حياتك، والشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفعله لأجلك هو أن يبقى بعيداً عنك.

- هل قال ذلك؟

الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفعله لأجلي.

لم تستطع أن تمنع ما شعرت به. ففي أعماقها كانت بذرة الشوق الصغيرة قد تجذرت، وأخذت في النموّ.. هل هذا ممكن؟ أصحيح أن رونان يشعر بشيء نحوها؟

الحق مع ديفي. ثمة طريقة واحدة لمعرفة ذلك، ولكن هل تتحلى بالشجاعة الكافية للقيام بذلك.

في اليوم التالي وصلت ليلي إلى منزل رونان الأنيق لتجده مظلماً وأبوابه مغلقة، فتحول مزاجها من التوجس والتوتر إلى القنوط.

وأخذت تتمنى، بصمت، أن يكون موجوداً، إلا أن أحداً لم يجب على رنين جرس الباب.

ماذا تفعل الآن؟ يمكنها انتظاره. ولكن من يعلم إن كان رونان سيعود هذه الليلة؟

في تلك اللحظة لفت نظرها وهج ضئيل، يتسرب من مكان ما من القسم الخلفي للمنزل إلى الحديقة، فتحركت ليلي بحذر متجهة نحوه.

اجتازت الطريق الضيق بجانب المنزل، فوجدت غرفة جلوس واسعة تطل على حديقة فسيحة ذات باب زجاجي باتساع الجدار تقريباً. كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس يخرقه وهج النار في المدفأة الرخامية. لا شك أن رونان أشعل النار للتغلب على صقيع المساء، فالليلة باردة حقاً.

ولكن هذا يعني أنه مصمم على العودة هذه الليلة إلى المنزل، وإذ همت بالابتعاد لفتت انتباهها حركة خفيفة سمرتها مكانها.

- رونان!

همست باسمه وقد رأت رجلاً مستلقياً على الأريكة مستغرقاً في نوم

عميق جيداً بحيث أن رنين جرس الباب لم يوقظه. راحت تسترق النظر من خلال الزجاج فاستطاعت أن تميز جسمه الطويل، ووجهه القوي القسمات وشعره القاتم الذي يضيئه لهب نيران المدفأة.

رفعت يدها لتدق على الزجاج ولكنها عادت وغيرت رأيها، لا يمكنها أن تقتحم منزله بهذا الشكل.. وتخيلته يستيقظ مجفلاً ليرى (الزوجة) التي تركها وراءه في مكان بعيد، تسترق إليه النظر.

ولكن ماذا عليها أن تفعل؟ وإذ دست يديها في جيبي معطفها وجدت المفاتيح التي أعطاها ديفي إليها، قائلاً: «طلب مني رونان أن أستعمل منزله وأعطاني مفاتيحه. خذيها معك، لا أحد يعلم، فقد تنفعك».

خفق قلبها خوفاً، وأسرعت إلى الباب الأمامي للبيت وأدخلت المفتاح في القفل، وأدارته بخفة كي لا تصدر صوتاً عالياً، ثم فتحت الباب ودخلت إلى الردهة الفسيحة.

ما إن أصبحت في الداخل، حتى تأهبت حواسها كلها.. ثمة شيء مريع.. مريع للغاية، شعرت بذلك بالغريزة.

نظرت حولها متوترة، ثم أخذت تشتم الهواء كهرة متوترة. حريق! واقشعر جلدها مذعورة، ثمة شيء يحترق.

وتحركت بسرعة مجتازة الباب الذي يؤدي إلى غرفة الجلوس، ودفعته بقوة لتفتحه، وإذا بالرائحة تزداد سوءاً، بينما الدخان يلف الغرفة. تسمرت رعباً، وهي ترى جمرة أخرى متوهجة تستقر على السجادة بجانب المدفأة، وتلتهب بعد أن أدركت طرف صحيفة ملقاة هناك، التهم اللهب الصحيفة بسرعة وازداد توهجه وهو ينتقل بثبات زاحفاً نحو..

- رونان!

صرخت بذلك وهي تندفع إلى الأمام، مختطفة وسادة في طريقها لتضرب بها النار كوسيلة مرتجلة للإطفاء، إلا أنها لم تبال بالنيران وهي تسري في أطراف الوسادة فتصل إلى يديها. ولم تتوقف حتى حين تأكدت من انطفائها تماماً، بل أخذت تتابع الضرب فترة طويلة بعد انطفائها.

وعلى الأريكة، أخذ رونان يتحرك متململاً بضيق، وقد أزعجته الضجة. ففتح عينيه الثقيلتي الأجفان وأخذ يحدق مذهولاً، في المشهد البادي أمامه.

ليلي، هنا؟ هذا مستحيل. لا بد أنه يحلم فغالباً ما يحلم بأنها عادت إلى حياته، لكنه كان دوماً يستيقظ ليجد أن مخيلته كانت تخدعه، كما تخدعه الآن.

أخذ يطرف بأجفانه بقوة، وعاد يركز نظراته، فرأى المرأة الشقراء ما زالت موجودة.

ـ ماذا..؟ ليلي؟

سمعت ليلي صوت رونان من خلفها، وبدا لها مضطرباً مشتتاً.

ـ بحق السماء يا ليلي، النار مطفأة!

وأمسكت يداه الحازمتان ذراعيها، لتوقفها عن الحركة.

ـ إنها مطفأة.

كرر قوله بمزيد من التأكيد، وقد ظهرت في صوته نبرة منخفضة لم تستطع تفسيرها.

ـ آه.. نعم.

خذلها صوتها تماماً فأوقفها رونان، ليتركها بعدها ويجتاز الغرفة ويضيء النور. وعندما التفت إليها، راعها التغيّر في مظهره. فقد بدا واضحاً، في بنطلونه الجينز وكنزته السوداء، أنه فقد من وزنه بينما غطت الظلال السوداء تحت عينيه، وظهر الإنهاك والقلق على وجهه وكأنه لا ينام جيداً. ولا شك أن الإرهاق البادي عليه هو الذي حال دون إحساسه بالنيران قبلها هي.

أيعقل أن تكون هي السبب؟ هل كان ديفي محقاً حين قال إن رونان يفتقدها؟

ـ يا إلهي يا ليلي.. يداك!

جعلها هتاف رونان المصعوق تنظر إلى البقع الحمراء على راحتيها ومعصميها بتبلد وعدم فهم.

ـ أنت مصابة، لا بد أنك أحرقت نفسك.

ـ لم.. لم أدرك ذلك.

كان هذا صحيحاً، فهي لم تشعر بألم كما لم تفكر في نفسها. فقد صبت اهتمامها كله على إنقاذ رونان.

ـ أنت..

وسكت بحدة متغاضياً عما كان يهمّ بقوله: «أريني».

رفعت يديها فأخذ يتلمس راحتيها المصابتين برفق وملامحه القوية مستغرقة في التفكير.

ـ تحتاج هذه اليد إلى ضمادات. تعالي إلى المطبخ، ثمة صندوق للإسعافات الأولية.

تبعته ليلي، مذعنة بصمت، إذ خانها لسانها إزاء اهتمامه واعتنائه بها.

ـ من الأفضل أن أصطحبك إلى المستشفى.

قال ذلك وقد رأى الدموع المترقرقة في عينيها، فأخطأ في تقدير سبب ذلك.

ـ هل تشعرين بالألم؟

بالمقارنة مع مشاعرها المتكدرة، بدا لها الألم الجسدي عديم الأهمية. لكنها لا تستطيع أن تقول له ذلك وهي لم تسمع منه كلمة تدل على سروره لحضورها رغم ما أبداه من اهتمام وعناية.

ـ لا، لا داعي لذلك.

فكيف لها أن تخبره عن سبب مجيئها في قسم الطوارىء في المستشفى.

ـ هذا كافٍ، صدقني.

وحركت يديها تشير إلى الضماد الذي وضعه عليهما.

لكن تظاهرها بالشجاعة ما لبث أن تلاشى عندما هاجمتها موجة مفاجئة من الدوار جعلتها ترتنح في وقفتها.

ـ ليلي..

ومدّ يديه إليها، لكنها ابتعدت عنه بحدة. كانت تتحرق شوقاً للارتماء

بين ذراعيه والاستسلام له كلياً، ولكنها لم تستطع أن تذعن لرغباتها. فاعتناؤه بها لا يدل على أنه يكنّ لها مشاعر قوية.

- إنها ردة فعل فقط لما حصل. إذا استطعت الجلوس..

- طبعاً.

وقادها عائداً بها إلى غرفة الجلوس وأجلسها على أريكة خضراء.

- إن كانت النار تزعجك، يمكنني أن..

فأسرعت تطمئنه: «لا، لا بأس في ذلك».

لم يعد اللهب المتصاعد يزعجها. فقد واجهت لتوّها خوفها من النار وتغلبت عليه. ليتها تستطيع أن تفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى رونان! لكنها لم تجرؤ على الحديث معه مباشرة لأنها ستخسر الكثير إن كانت النتيجة سلبية.

جلس رونان على كرسي أمامها مائلاً نحوها، مريحاً ذراعيه على ركبتيه وهو ينظر إليها بعزم: «ليلي، لماذا أنت هنا؟ ما الذي جاء بك إلى لندن؟».

حاولت ليلي، بانفعال، أن تجد جواباً مبهماً.

- الأمر يتعلق بزواجنا، لا يمكننا الاستمرار على هذه الحالة.

- فهمت.

وتراجع إلى الخلف فجأة، وكأنه أصيب بضربة عنيفة. فقد قضت كلماتها تلك على بصيص الأمل الذي لاح له في الأفق.

حاول رونان أن يؤخر إجراءات الطلاق علّ ليلي تعيد التفكير في الأمر وتغفر له ما فعله بها من أشياء مفزعة، فتمنحه فرصة جديدة ليحوّلا زواجهما الزائف إلى زواج حقيقي. ولكن يبدو أن أمله خاب.

- طبعاً.

كان صوته فاتراً منخفضاً خالياً من المشاعر.

- كنت أتساءل متى سيحدث هذا. من هو؟

لم تفهم ما يقصده: «من هو؟ عمّن تتكلم؟».

- الرجل الآخر، الرجل الذي تريدين البقاء معه. أظنك جئت لتسألي

عن سبب تأخري في إجراءات الطلاق.

- ليس هذا سبب حضوري!

أفلتت هذه الكلمات منها قبل أن تفكر في مدى حكمتها، فهي لا تريد أن يظن أن ثمة رجلاً آخر في حياتها.

تألقت عيناه ببريق غريب وهو يسألها: «لماذا جئت إذن؟».

دقت لحظة الحقيقة. فملأ الذعر قلبها واشتعلت النيران في عروقها، وبدأت تتصبب عرقاً.

مسحت العرق عن جبينها بيد مرتجفة وهي ترى نظرات رونان اليقظة تتبع حركتها هذه.

- أليس من الأفضل لك أن تخلعي معطفك؟

لم يكن أمامها من خيار سوى الامتثال لرأيه، حتى لا تثير شكوكه.

تنفست بعمق، ثم وقفت وخلعت معطفها الواقي من المطر الذي كان يخفي حملها.

لاحظ على الفور تغير جسمها، خاصة وأنه يعرف تفاصيله حق المعرفة. لم تدرك إلا الآن مدى الشبه بين لون ثوبها هذا وبين لون الثوب الذي لبسته تلك الليلة التي أخذها فيها إلى نادي «الليدز» تلك الليلة التي حملت فيها بجنينها.

- هل أنت حامل؟

فأطلقت ضحكة صغيرة مرتجفة للحيرة التي بدت عليه: «لا يمكنني إنكار هذا، أليس كذلك؟».

وأخذت تسوّي كنزتها فوق الانتفاخ البسيط الذي بدأ يظهر. ولكن عندما نظرت إلى رونان، صدمت للغضب العنيف الذي كانت تلتهب به عيناه وقد تصلبت ملامحه حتى بدت وكأنها منحوتة من حجر الصوّان.

أتراها أخطأت في الحكم على الأشياء؟

- وهل أردت إخفاء الأمر عني؟

سألها بصوت جاف وهو يندفع واقفاً، فأجابته وهي ترتجف: «لكنني

أتيت لأخبرك، أليس كذلك؟».

تمنت لو أنه لم يقف بقربها مشرفاً عليها بقامته الفارعة القوية مهدداً، وشعرت وكأن الأرض تنهار تحت قدميها، جاهلة ما إذا كان غضبه هذا لأنها لم تخبره قبل الآن أم لأنها حامل بطفل لا يريده.

ـ لقد تأخرت طويلاً.

ـ كنت..

وعندما لم تستطع أن تكمل كلامها، ألحّ عليها يسألها: «كنت..؟ يا ليلي..؟ كنت ماذا؟».

ـ كنت خائفة!

قذفت هذه الكلمة في وجهه، متخلية بذلك عن تحفظها.

ـ خائفة!

ردد كلمتها هذه مذهولاً.

ـ خائفة من ماذا؟ من أن أطلب منك أن ترحلي؟ أواه، يا ليلي..

تغير مزاجه فجأة وتلاشى التوتر من جسمه القوي، واسترخت ملامحه القاسية المتصلبة.

ـ أنت مخطئة جداً.

قال ذلك برقة فائقة جعلت ليلي تحدّق إليه مضطربة غير مصدقة.

ـ لكن يجب أن ترى أن هذا يغيّر كل شيء وعليك أن تطلبي من صديقك أن يبحث عن امرأة أخرى. مستحيل أن أوافق على الطلاق الآن.

ـ أنا..

فانفجرت تقول بيأس: «ليس لدي صديق. وكم مرة عليّ أن أخبرك بأنني لم أحضر إلى هنا من أجل الطلاق؟».

نظر إليها مستغرباً وسألها: «ما الذي أتى بك إذن؟».

كانت قوى ليلي قد استنفذت كلها فجلست فجأة وقد شعرت أن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها أكثر من ذلك. فالدقائق التالية ستقرر مستقبلها، وكل شيء وقف على ردة فعل رونان لما ستقوله.. تقدم رونان

يجلس بجانبها: «ليلي! أجيبي عن سؤالي!».

ـ لم تكف عن توجيه الأسئلة حتى الآن.

تمكنت ليلي من أن تقول هذا بصوت مضطرب، وهي تلتمس في وجهه ما يشجعها على الأمل.

لم تعرف ما إذا كان اللهب في عينيه هو ما تبحث عنه، ولكن لم يعد بوسعها أن تتراجع، لأنها قطعت شوطاً طويلاً. وقد حان الوقت للمغامرة بكل شيء في ضربة واحدة.

ـ وحان الوقت لتجيب عن أسئلتي ويمكنك أن تبدأ بإخباري لماذا ساعدت ديفي؟

ـ وهل رأيته؟

كان سؤاله سريعاً ودفاعياً في آن معاً.

ـ رأيته. وأخبرني ما فعلت لأجله.. أما ما أريد أن أعرفه، يا رونان، فهو.. لماذا؟

ـ لأنه لم يعط روزالي تلك الحبة.

وأخذ يحدق في السجادة المحروقة في محاولة منه لتجنب نظراتها الفاحصة.

ـ أعرف هذا، إنما ما أدهشني هو أنك منحته الفرصة ليشرح لك الأمر، مع أنني حسبتك ستقتله عند رؤيته.

توهج وجه رونان وهو يهز رأسه بحماسة.

ـ شفيت من الرغبة في الانتقام بعد تصرفي الأحمق معك، لأنني أدركت أنه لم يحلّ شيئاً، ولم يخدم هدفاً على الإطلاق. فقد تكوّمت الآلام فوق بعضها بعضاً ثم حطمتني عندما آذيتك.

خفق قلبها بعنف لكلماته هذه.

ـ ولكن لماذا..؟

ـ لماذا ساعدت أخاك؟

وتنهد رونان بعمق، وأخذت أصابعه تنقر بقلق على ذراع الأريكة.

أتراه متوتراً؟

ـ عندما حدثتني عن موت والديكما أدركت أنني لن أتمكن أبداً من النظر إلى ديفي من المنظار نفسه، فوجدت نفسي، أشعر بالعطف عليه. وعندما جاء ليراني، ليخبرني بحقيقة ما حدث، لم أر فيه ذلك السفاح عديم المسؤولية الذي كنت أعتقده، بل رأيت ديفي الحقيقي. فوراء كل ذلك التبجح واللامسؤولية، رأيت الصبي الصغير الضائع الخائف من أن يكون مسؤولاً عما حدث لأمه وأبيه، الذي جعله تأثير ذلك يعتبر نفسه مسؤولاً عما حدث لروزالي أيضاً، رغم أنه لم يكن مشتركاً في ذلك بشكل مباشر.

أخذ نفساً آخر عميقاً، وتابع يقول: «فعلت ما فعلته من أجل روزالي أيضاً. فقد أحبت ديفي، والشيء الوحيد الذي بإمكاني أن أفعله لأجلها هو أن أتأكد من أنه بخير، وفعلت ذلك لأجل نفسي أيضاً. فبعد الفوضى التي أحدثتها في حياة الآخرين، أردت أن أصلح بعض الأمور».

أخذت ليلي تفكر باكتئاب بأن ما فعله كان لأجل ديفي، وروزالي ورونان نفسه، ولكن ماذا عنها هي؟

وقالت بصوت منخفض حزين: «أما أنا، فلم تفكر بي قطُّ».

رفع رونان رأسه بحدة، ونظر في عينيها المظلمتين: «لم أفكر بك؟ ولكنك كنت السبب الوحيد في كل شيء، القوة الدافعة وراء كل ما فعلته أنا. فما فعلته كان بسببك.. ولأجلك».

ـ أنا..

لكنها عجزت عن الكلام. فما قاله لا يصدّق، ومن الصعب عليها أن تستوعبه مرة واحدة، ومد رونان يده يأخذ يديها بيديه.

ـ كان شعوري بالذنب لما فعلته بك بالغاً. فقد أدركت مدى قسوتي وأنانيتي ورغبتي السخيفة في الانتقام.

ـ لأنك كنت تتألم كثيراً.

قالت ليلي ذلك وهي لم تعد قادرة على تحمل عذابه وهو يعنف نفسه بهذا الشكل. ولكنه هز رأسه بعنف وكأنه ينكر عليها محاولتها تبرير عمله.

ـ هذا ليس عذراً، ما فعلته كان خطأ. كنت بريئة فآذيتك بشكل فظيع، وعاملتك بطريقة لا يمكن لإنسان أن يعامل بها إنساناً آخر، فكيف إذا كان ذلك الشخص..

وسكت لبرهة قبل أن يتابع كلامه قائلاً: «أريد منك أن تعرفي أنني أردت أن أتركك في نفس الليلة، وأرحل من دون إتمام الزواج حتى تنتهي منه بسهولة».

وظهر في ابتسامته الاشمئزاز والازدراء لنفسه وهو يتابع: «كنت سأخبرك بينما كنا نأكل. ولكن حين أخذت تطعمينني بيدك لم أستطع منع نفسي..».

واهتز جسمه القوي لذكرياته.

ـ وفقدت صوابي والقدرة على تمالك نفسي وذهبت بنا الأمور إلى أبعد حد فتعقدت المسألة أكثر بكثير مما كنت تصورت، وأنا لا أستغرب مبلغ كراهيتك لي بهذا الشكل.

ـ أنا لا أكرهك.

قالت له ذلك برقة وثقة.

صُعق رونان وبدا الاضطراب في عينيه: «لا بد أنك كذلك.. فأنا أكره نفسي ولا يمكن أن أصفح عن كل ما..».

ـ لكنني أغفر لك ما فعلته.

تسمر في مكانه، وقد ارتدّ رأسه إلى الخلف بحدة. ونظر في عينيها بعينين مظلمتين تفصحان عن ألم وضعف طعناها في الصميم.

ـ أنت..

ـ نعم. أصفح عن كل شيء فعلته.

ـ ولكن كيف؟

ـ لأنني أفهم السبب الذي جعلك تفعل هذا. فقد كنت تتألم بشدة. وعندما تحب شخصاً، يصبح من السهل أن تغفر له.

ـ الحب؟

كان صوته أجش صادراً من الأعماق، مفصحاً عن عمق مشاعره الحقيقية.

- لا يمكنك أن تحبيني! ومع ذلك واجهت النيران لأجلي..

تابع ذلك محدثاً نفسه تقريباً، وقد امتلأ صوته بنوع من الرهبة: «لو تعلمين ما شعرت به عندما استيقظت ورأيتك. وكنت أعلم مبلغ فزعك من اللهب..».

كانت ابتسامة ليلي واسعة رقيقة تفصح عن كل ما في قلبها.

- لم أفكر في النار لأنك كنت في خطر ولأنني.. لأنني أحبك. آه، يا رونان، كم أحبك! وهذا هو سبب وجودي هنا. فأنا أحبك وأريد أن نجعل زواجنا حقيقياً، حتى يكون لابتنا..

- لكنك قلت إنك تكرهينني!

- أواه، يا رونان!

وإذ تمزقت مشاعرها بين الضحك والبكاء، لم تستطع إلا أن تهز رأسها استنكاراً لكلماتها الحمقاء تلك.

- لست وحدك من ينطق بكلمات غبية ومؤذية ليخفي من خلالها الألم في داخله. فأنا لم أقل ذلك إلا لأغطي حبي لك، تماماً كما تركتك ترحل لأنني ظننت أن هذا جلّ ما يمكنني أن أفعله لأجلك. فقد تألمت أسرتك كثيراً..

- لكنني رحلت فقط لأن هذا جلّ ما يمكنني القيام به لأجلك.

وعندما هز رونان رأسه مستغرباً حماقته، استجمعت ليلي شجاعتها لتلقي عليه السؤال الذي يهمها جوابه أكثر من أي شيء آخر: «أيمكنك الآن أن تنهي جملتك؟».

- جملتي؟

ونظر إليها باستغراب.

- قلت إنه ما كان يجدر بك أن تعامل أي شخص بتلك الطريقة.. فكيف إن كان ذلك الشخص..

فأكمل رونان جملته بصوت حافل بالإخلاص: «فكيف إذ كان ذلك الشخص امرأة أحبها أكثر من أي شيء في العالم وأنا أحبك يا ليلي! أحبك أكثر من الحياة نفسها، وإذا كان بإمكانك حقاً أن تصفحي عني، فسأمضي بقية حياتي في إسعادك، سوف..».

وسكت عندما وضعت ليلي يداً رقيقة على فمه تسكته.

- أعرف هذا. لقد رأيت مبلغ حبك لروزالي، فإن كنت تكن لي ذلك النوع من الإخلاص والتفاني، فكيف لا أكون سعيدة؟

- آه، يا ليلي..

وأخذت عواطفها تغمرها حتى لم تعد تستطيع أن تتنفس، وظهر في عينيه شوق وعاطفة دلت على حبه ورغبته وحاجته إليها أكثر مما يمكن أن تفصح عنه الكلمات.

راح قلبها يخفق بشدة بين ضلوعها وقد اشتعلت النيران في عروقها، فأخذ الشوق في داخلها يطالب بالمزيد. ولكن بقي لديها سؤال واحد: «أتظن أن والديك سيقبلان بي؟».

وجاء دور رونان الآن ليسكتها: «يكفي أن ينظرا إليك ليحباك».

وتابع يقول وقد رأى الاهتمام على وجهها: «إنهما يعلمان أن ديفي ليس مسؤولاً عما حدث لروزالي. وعندما يعرفان بأمر الطفل، فسيسرهما استقبالك في الأسرة. صحيح أن طفلنا لن يأخذ مكان روزالي، لكنه سيملأ الفراغ الذي خلفته. وبصفتك زوجتي..».

- زوجتي!

رددت ليلي الكلمة برهبة، فلم تخل أبداً أنها ستصبح زوجة رونان فعلاً.

وعندما رفعت يدها لتلمس وجهه بمحبة، تذكرت بندم حماقتها يوم ألقت خاتم زواجها في القناة.

فصرخت بأسى: «رونان، ليس لدي خاتم. أنا..».

- سأعطيك خاتماً آخر، خاتم حب لزواج حقيقي بين عقلين وقلبين

وسنقيم حفلة زفاف أخرى. لنا، نحن الاثنين. وقد ندعو إليها أبوي وديفي. وعندما أتعهد بأن أحبك وأحميك، فستعلمين هذه المرة أنني أعني ما أقول.

وراح يتكلم إلى أن دار رأسها. ولم يعد بإمكانها السيطرة على المشاعر التي استعرت في داخلها، مما جعلها ترتجف قربه.

وتمتمت: «ذلك الزواج، الذي هو بين عقلين وقلبين.. أظنك نسيت شيئاً..».

ـ ماذا؟

جعلتها تلك الضحكة التي تخللت الكلمات تدرك أنه يعرف تماماً ما تعنيه. ولكنه، مع ذلك، تظاهر بعدم الفهم.

وارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة فشعرت بردة فعله وتوتر عضلاته القوية.

ـ كان عليك أن تقول قلبينا وعقلينا وجسدينا. اتحاد المشاعر والثقافة والجسد، هذا هو نوع الزواج الذي أريده.

ـ وأنا أيضاً.

قال رونان بصوت مليء بالمشاعر: «أتريدين أن أريك مقدار ذلك؟».

فتألقت ابتسامة ليلي تظهر سعادتها.

ـ انتظرت طويلاً هذا السؤال. نعم، أريد ذلك من كل قلبي.

وشعرت بسعادة بالغة وهي تعلم أنها زوجته الآن ليس ليوم واحد، بل لكل أيام عمرها.

***